العتبة العباسية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
شعبة الدراسات والنشرات

قبسات من سير المعصومين

(٣)

المُنجز الحضاري الاجتماعي

للنبي صلى الله عليه وآله ودوره الأنساني

تأليف

موفق هاشم عبيد

العتبة العباسية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
شعبة الدراسات والنشرات
كربلاء المقدسة
ص.ب (٢٣٣)
هاتف:٣٢٢٦٠٠، داخلي: ١٧٥ـ١٦٣

www.alkafeel.net
info@alkafeel.net

الكتاب: المنجز الحضاري للنبي ﷺ ودوره الانساني.
تأليف: موفق هاشم عبيد.
الناشر:قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة العباسية المقدسة.
التدقيق اللغوي: عمار كريم السلامي.
التصميم: علاء سعيد الاسدي.
الاخراج الطباعي: محمد قاسم النصراوي.
المطبعة:دار الكفيل للطباعة والنشر.
الطبعة: الأولى.
عدد النسخ:٢٠٠٠ .

شوال ١٤٣٨-حزيران ٢٠١٧

افتتاح

لحّنْ معي الآيات وزِدْ ذكرا..

فقلْ فخراً.. ونِرْ دربا.. ودُرْ شعرا..

رددْ على الأسماع.. ما فيه من نغمٍ..

واعلن علو الصوت.. الكون قد نضرا..

أُتلُ بريح المسك.. ما أنت تعرفه..

فالحق يعلو العُلْو.. والشر قد ضمرا..

ها أنا على الأعراف أقفْ، وأتهيأ لدخول معترك التبجيل، ها أنا أشمر عن ساعدي، وألتقف بيميني قلم الحياة، لأخط مسيرة الآخرة، بريح النجاة والطمأنينة الدائمة، أما يدي اليسرى فأمدها إلى السماء متوسلا بالرب الرحيم أن يسدد خطواتي، ويلملم خطراتي، ويمنحني الانشراح والبصيرة؛ لأنجح بما أريد أن أُقْدم عليه..

إلهي أفض عليّ رحمتك.. وتوفيقك الذي لا يُضاهى بشيء، وامنحني النجاة العظيمة بقبول الحبيب لما تنتجه قريحتي البسيطة

المتواضعة، حتى أنال الفوز الأبدي عند مليك مقتدر.. لكن ما يسعف حالي.. أنني سأكتب عن محمد، وكفاني بذلك عزا وحظا وفخرا.

محمد!

يا بهجة.. أُعجنت بين روعتي وفكري!

يا واحة.. استوعبت كل كياني!

فصرت فيها مرشدا ودليلا

لكن الدليل محتاج إلى دليل!

يأتي ربه بقلب سليم.. مفعم بالعلم والايمان والتسليم

لكنني.. رغم ذلك سأفعل!

وأدخل البحر.. سراعا..

وآتي بما أصطاد من دُرٍّ

قَلَّ وإن زاد، فهو حسبي

***

يا جنة العلى..

ما أجمل نسماتك.. وطيبة ظلالك

لجأت إليك ليكون لي معنى

تقربت إليك لأرتقي في سلم الحياة

ثم أفوز فوزا عظيما

سآوي إليك ملاذا.. كلما اعتسرت اكتئابا..

وأنتهل ما يرتوي به ظمئي

إنك أروع ما رسمته يد الله في معرض الوجود

تُعبِّر عن سمو الوجود.. وتمد كل موجود

***

ها أنا أقف على أعتاب أبوابك كالحيران

أريد أن أخط ما أُشع من نورك

لكن.. كيف لي أن أرتسم أفلاكا عرضها السماوات والأرض؟!

وكيف لعيني الصغيرة أن تنظر إلى شمس الكون العظيمة..

حتى ترتشف منها معاني السر المكنون؟!

وهل تستوعب جعبتي وهجات لا يعلم كنهها إلّا الله سبحانه؟!

لكن ما حيلة المرء ان أقحمه القلب صوب حضرة المسجى بظلامة التاريخ..

***

سيدي.. نعرف ان كان لنا مجد فضيعناه

ونعلم ان كان لنا عز ففقدناه!

بكم سنجلي الغيم عن قمم العُلا..

وبكم سنرتقي..

إنْ بعضا من طريق نجواكم سيدي..

سلكناه!

ما هي الحضارة؟

الحضارة لغة:

ورد في لسان العرب لابن منظور الأفريقي أن الحضارة تعني: «الإقامة في الحَضَر.. والحَضَر والحَضْرة والحاضِرة، خلاف البادية، وهي المدن والقرى والريف »[1]. والحَضَارَة في اللغة تعني عكس البداوة، أي السكن والعيش في المدن والقرى. غير أننا لا نريد بلفظ(الحضارة) في هذا البحث معناها اللغوي، بل إن المراد من ذلك هو ما يحيل من استخدامها عند الكلام في النصوص والمواثيق التاريخية والاجتماعية والفكرية والسياسية المتأخرة والمعاصرة.

الحضارة اصطلاحا:

نستطيع القول بأن هذا المصطلح ليس إسلاميا ولا عربيا، بل هو مصطلح غربي أُرتشف اسلاميا وعربيا من خلال حركة الترجمة التي نشطت إبان حركة النهضة الفكرية الإسلامية بعد زوال الاحتلال التركي العثماني المنغلق والمتسلط على الأمة فكريا وسياسيا واقتصاديا..

تعود نشأة الاصطلاح الى الدراسات الأوربية المتأخرة والمعاصرة

(١) لسان العرب، ابن منظور: حرف الراء فصل الحاء،(٤/ ١٩٦).

حينما درجوا على استعمال الكلمة(Civilisation)، وتترجم هذه الكلمة في العربية الى(الحضارة) أو ربما تترجم الى(المدنية)، ليعبر بها عن التطور الصناعي والتقدم المادي والعمراني الذي بدأ بالازدياد والاطراد في العصور الحديثة.

غير أننا نجد أن العبارة أخذت ـ فيما بعد ـ مدلولا آخر مغايرا، فقد أمست هذه اللفظة تطلق على مجموعة من المظاهر والظواهر التي تدخل في المجالات العلمية والاجتماعية والأدبية التي تهم مجتمعا ما من المجتمعات التي تعيش على أرض معينة من هذه البسيطة.

ولو تأملنا الكتابات التي انتشرت في القرن العشرين وما بعده إلى اليوم فإننا نجد أن الكتاب والمفكرين والمؤرخين والاعلاميين وأضرابهم أصبحوا يتحدثون عن حضارات قديمة وينعتونها بالحضارة السومرية القديمة مثلا، والحضارة المصرية والإغريقية اليونانية والرومانية والفارسية والحضارة الاسلامية والحضارة الغربية الحديثة والمعاصرة المتمثلة بأوربا وأمريكا.

ومشكلة هذا المصطلح هو أنه يدخل في مضمونه كل ما يملكه مجتمع وما يرثه ويبدعه من أفكار ونظم وفنون وتشريعات وانجازات ثقافية وأدبية، وهو غير معني بالمميزات التي تميزه عن بقية المجتمعات الأخرى، فعندما نقول أن من ضمن الجوانب الحضارية للمجتمع الفلاني (التعايش) لا على أنه وُجد عندهم فقط دون غيرهم، بل نذكره

لأنه جنبة حضارية وُجد واقعا في هذا المجتمع، سواء أ كان عند غيره أم لم يكن.

ونجد أن بعضا من الباحثين المعاصرين قد توسعوا في اطلاق هذا المصطلح، فمثلا يقول أحدهم عنه بأنه: «مجموعة المعارف العلمية والتشريعات والنظم والعادات والآداب التي تمثل الحالة الفِكْرية، والاقتصادية والخلقية والسِّيَاسِيَّة، والفنية، وسائر مظاهر الحياة المادية والمعنوية في مراحل التاريخ، وفي أيِّ بقعة من بقاع الأرض، سواء شملت شعباً أو أكثر»، وقال آخر: «قصة الإنسان في كل ما أنجزه على اختلاف العصور وتقلب الأزمان، وما صورت به علاقته بالكون وما وراءه»[١].

وهناك من ميّز بين الحضارة والمدنية، باعتبار أن الحضارة تهتم بالأمور الاجتماعية والمعنوية وطرق العيش بل وحتى القضايا الروحانية عند البعض، في حين أن المدنية تهتم بالمنتج المادي والصناعي وما إلى ذلك، حتى وجدنا أحد المؤلفين قد عرّف الحضارة والمدنية فقال: «يمكن تعريف الحَضَارَة بأنها مجموعة المفاهيم عن الحياة، ويمكن تعريف المَدَنيَّة بأنها مجموعة الأشكال والوسائل المادية المستخدمة في شؤون الحياة»[٢].

---

(١) ينظر: الفكر الاسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية، محمد المبارك: ٢٧. الاسلام والحضارة الغربية، محمد محمد حسين: ٦.

(٢) نظام الاسلام، تقي الدين النبهاني: ٥٩ ـ ٦٣.

مفهوم الحضارة المحمدية

ان ما نعنيه من الحضارة التي نريد أن نبين جوانبها واتجاهاتها عند نبي الرحمة محمد ﷺ هي: تلك المنظومة الفكرية بكل معالمها وأقسامها التي أتى بها لتنظيم شؤون الحياة الفردية والاجتماعية، وما قام به من أعمال وأفعال تنم عن حس إنساني مفعم بالسمو والرقي والعقل والأخلاق النبيلة، وفوق ذلك ما أنجزه النبي من إبادة لقيم البداوة بشقيها الفكري والسلوكي، والقضاء على كافة أشكال التمييز العنصري والقومي التي صُبغت بها أغلب المجموعات البشرية وإلى يومنا هذا.

إذن نحن نستهدف بذلك تدوين المنتج المحمدي بشقيه التنظيري والتطبيقي، الذي أفاض به على البشرية كلها، ذلك الذي عانى من أجل إشاعته بين الناس كل ألوان العذاب والتنكيل، نعم فنحن نستشف من حبيبنا محمد ﷺ تلك الجذوات التي بقيت تصارع كل تلك الأمراض وتحريفات العصور، وتقاوم أبشع التيارات والأمواج، حتى وصلت إلينا متوهجة كالشمس في رابعة النهار.

مُلهِم الحضارة الأعظم

كان قائداً فذاً عظيما، استطاع أن يبني أمة من الشتات والفتات المبعثر، حتى لملم الأوصال، وأوصل بين المتباعدات، إلى ان بنى أمة عظيمة، ترسو على أرض واسعة، ضمت فيما بعد الشرق والغرب، ذلك هو نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وآله.

كان نبينا الأعظم حاكماً مُثقلا بهموم رعيته، يمنحهم من مودته وعطفه ما يجعلهم يفتدونه بأنفسهم، ومع هذا كله فهو قائم على أعظم دعوة شهدها الكون، الدعوة التي حققت للإنسان وجوده الكامل، وتغلغلت في كيانه كله.

لقد رأى الناس تمثل تلك الصفات الكريمة في الرسول الحبيب صلى الله عليه وآله، فصدقوا تلك المبادئ التي جاء بها كلها، فهم لم يقرؤوها في كتاب أصم جامد، بل رأوها ووعوها في انسان سام بخلقه ومتلهف إلى هدايتهم، فتلهفت له نفوسهم، وهفت له مشاعرهم، والناس إليه كعرف الضبع ينثالون، وحاولوا أن يقتبسوا من فيوضاته ما يذيب جليد الظلام المطبق على دنياهم، كلا بقدر ما يطيق، فكان أكبر قدوة وأعظم أسوة للبشرية في تاريخها الطويل، وكان داعيا إلى ربه ومنظرا إلى الحق بسلوكه

الشخصي قبل أن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وقبل النطق بالكلم الطيّب المبين.

ويا له من كلام منصف في حق النبي قاله العالم الأمريكي مايكل هارث، حيث قال: «إن محمدًا [ﷺ] كان الرجل الوحيد في التاريخ الذي نجح بشكل أسمى وأبرز في كلا المستويين الديني والدنيوي.. إن هذا الاتحاد الفريد الذي لا نظير له للتأثير الديني والدنيوي معًا يخوّله أن يعتبر أعظم شخصية ذات تأثير في تاريخ البشرية»[١].

أما الأديب والفيلسوف الروسي الشهير تولستوي[٢] الذي أعجب بالإسلام وتعاليمه في الزهد والأخلاق والتصوف فقد انبهر بشخصية النبي ﷺ، وظهر ذلك واضحاً على أعماله، كمقالته التي بعنوان(من هو محمد؟)، حيث يقول فيها: «إن محمداً هو مؤسس ورسول، وكان من عظماء الرجال الذين خدموا المجتمع الإنساني خدمة جليلة، ويكفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق، وجعلها تجنح إلى السكينة والسلام، وتؤثر عيشة الزهد، ومنعها من سفك الدماء، وتقديم الضحايا البشرية، وفتح لها طريق الرقي والمدنية، وهو عمل عظيم لا يقدم عليه إلا شخص أوتي قوة ورجل مثله جدير بالاحترام

(١) قالوا عن الاسلام: ٧٧.

(٢) يمكن الاستزادة من كتاباته المنصفة تجاه النبي والاسلام بالرجوع الى مؤلفه الكبير(حكم النبي محمد).

والإجلال».

ويقول عنه أيضاً: «ليس هناك من شك في أن محمداًﷺ قدم ببعثته خدمة كبيرة للبشرية فهي فخر وهدى للناس، وهي التي أرست دعائم الصلح والاستقرار والرخاء وفتحت طريق الحضارة والرقي للأجيال، وبديهي أن ما فعله محمدﷺ عمل عظيم لا يفعله إلا شخص مقتدر ذو عزم رصين، ومثل هذا الشخص وبلا شك يستحق كل إكرام و تقدير و احترام».

إن الحديث عن المنجز الحضاري الذي قام به النبي الأكرمﷺ كلام لا يسعه كتاب واحد، بل يستغرق كتبا ومجلدات، بل أن أثر الحبيبﷺ في العالمين جميعا لا يمكن ادراكه والوقوف على كنهه، فهو بإيجاز أخرج الناس من الظلمات الى النور، لكن ما لا يدرك كله لا يترك جله.. لذلك سنقف محاولين استقراء بعض ما قام بهﷺ من أعمال حضارية، وما تبناه من قرارات اتخذت فيما بعد بعدا قانونيا احتكم إليه الجميع بما فيهم هوﷺ، رغم ما كان يمثله بأنه رأس الهرم في سلطة الدولة الاسلامية.

وقد عمل النبي على ارساء النظام في المدينة، وأصدر لوائح تمثل إعلانا دستوريا يتقيد به مجتمع المدينة المنورة وكل من سيدخل ضمن دولة النبوة المباركة، آخذا بنظر الاعتبار الجانب الانساني الذي ما انفكﷺ يؤكد عليه حتى آخر يوم من عمره الشريف، كل ذلك وجدناه

قد تجسد في أقواله وأعماله وتقريراته، فكان بحقٍ مُلْهِم الانسانية الأكبر ومعيلها الأعظم.

وحري بكتّاب الملّة والدين أن يبيّنوا تلك الإشراقات النورانية، وتلك المنجزات السامية التي كافح من أجلهاﷺ نظريا وتطبيقا، كي نرد يسيرا من احسانه الأنعم، ونقدم نصرة بسيطة جزاء معروفه الأتم، في زمن بدت تثار حول شخصه الكريم شبهات وشبهات، آخذين بتصويره للناس بأنه رأس المدلهمات[1]، ففي كل يوم نجد أن الماسونية الحاقدة وأنصارها الذين تشبعوا بإدلوجاتها، يسوحون العالم حاملين ألوية انحرافاتها، لتضليل الناس وابعادهم عن الهداية المحمدية، مدركين تماما أن ضرب النبيﷺ هو الضربة القاضية لدين الحق، وتدمير كامل لفسطاط الخير.

ومن جانب آخر نحاول بإمكانياتنا المتواضعة إيصال ما يمكن إيصاله من أن ما يقوم به المتطرفون المجرمون لا يمثل بأي شكل من الأشكال الاسلام المحمدي الأصيل، بل هو حالة طارئة على الاسلام، والنبي محمدﷺ بريء منهم ومن أعمالهم المشينة براءة الذئب من ابن يعقوب، تلك أعمال أسس لها أشخاص تدور حولهم الشبهات، لم يستلهموا من قيم النبيﷺ إلّا الشعارات والمظاهر، فاستحقوا الإخراج من الدين.. والمروق عن شريعة الحق المبين، وهذا إعجاز

(١) المدلهم: المظلم.

تاريخي باهر، يحسب لصاحب الرسالة الغراء، نبينا ومقتدانا وشفيعنا الحبيب محمدﷺ، الذي أخبر وحدّث بأكثر من مرة، أن فئة من الناس تأتي بعد موته وتدعي الدين والاسلام، وتكفّر الآخرين من المسلمين وغيرهم، وتفعل الفظائع والدمار، وأن هذا النهج سيستمر الى آخر الزمان، فأطلق حكم الله عليهم، وهو إخراجهم من الدين كخروج السهم من رميته، وهذا أعظم دليل ببراءة إسلامنا الحكيم ونبينا الكريم من تلك الجرائم ومرتكبيها بحق الانسانية أجمع..

ان أثر النبي الأكرم في المجتمع كان ظاهرا وواضحا، حتى شمل أولئك الجلاف والقساة من الأعـراب، وكما يقول هنري سيروي: «ومحمد[ﷺ] لم يغرس في نفوس الأعـراب مبدأ التوحيد فقط، بل غرس فيها أيضًا المدنية والأدب»[1].

إن الحديث عن الجوانب الحضارية والمنجزات الانسانية التي انبثقت من النفس المحمدية الطاهرة متنوع، أخذ أبعادا مختلفة ومناحيَ عديدة.. أهمها:

(١) قالوا عن الاسلام: ١٠٠.

البعد الاجتماعي

للمجتمع تعريفات متباينة ومتعددة، فلم يتفق الدارسون الاجتماعيون والمفكرون في وضع تعريف محدد الأطر يلتزم به الجميع، غير أن ذلك التغاير لم يكن يتصف بالعائمية والميوعة إلى الحد الذي يمكن القول عنه بأنه فوضوي، فتلك التعاريف كلها تدور في فلك واحد ضمن مساحة ممكنة للجميع.

يمكن ان يُعرف المجتمع بأنه مجموعة من الناس الذين تربطهم فيما بينهم روابط وصلات مشتركة ويعيشون في بيئة جغرافية محددة، وهذه الروابط والصلات ماهي إلا مجموعة من التقاليد والقيم والانظمة والآداب الاجتماعية والقوانين الخاصة التي لها الاعتبار عند غالبية الناس المنتمين إلى ذلك المجتمع.

والمحورية العامة التي يتفق عليها الجميع أن المجتمع هو مجموعة من الأفراد يتميزون عن غيرهم بعامل مشترك أو أكثر، مثلا المجتمع الطلابي الذي يشترك فيه أعضاؤه بأنهم طلبة التربية والتعليم، أو المجتمع الفلاحي الذي تجمع أعضاءه مهنة الفلاحة، أو المجتمع العراقي الذي تجمع أعضاءه الجغرافية الممتدة على طول البلد وعرضه.

ومعروف ان «الإنسان مدني بالطبع»[١]، فهو لا يستطيع العيش وحيدا بلا أنس بشري آخر، وهي حالة فطرية ليس للإنسان شأن ودخالة في تركيبها، فكانت مما جبل عليه الانسان وبرمج فيه، وبذلك تكونت وعلى مر التاريخ مجموعات من الناس ربطتهم علاقات كانت عرقية ونفعية في البداية، غير أنها فيما بعد صارت روابط مبدئية تقوم على الدين والفكر والسلوك.

وما نعنية في المنجز النبوي ببعده الاجتماعي هو الأثر النبوي القولي أو الفعلي الذي يمكن أن يكون له مدخلية مباشرة أو غير مباشرة في دعم المجتمع وتطوير علاقاته، وما يمكن أن يسهم في رفد تماسكه وتعزيز وحدته، وكل ما يصب في مصلحة المجتمع من سلوك وتعايش ورقي وأخلاق..

لقد كان النبي محمدﷺ يحمل في يديه مشعل الكفاح من أجل حياة حرة كريمة، كان ثورة اجتماعية على الظلم والطغيان، وعلى كل ألوان الاستغلال والاستعباد والعدوان، فثورة الحبيب ليست كأي ثورة أخرى؛ لأنها تميزت بأنها قد حررت الانسان من الداخل والخارج، حررته داخليا من خلال الجهاد الاكبر والذي يعني جهاد النفس وجمح رغباتها التي تخل بالنظام الشرعي والأخلاقي، كما حررته خارجيا من خلال اعلان الجهاد الأصغر في ساحات الوغى، ولا يمكن ان يتحقق الهدف السامي من الجهاد الاصغر إلا بعد الأخذ بمبادرة الجهاد الاكبر المتمثل بجهاد النفس.

(١) المقدمة، ابن خلدون: ٤٩.

ثنائية الفرد والمجتمع عند النبي صلى الله عليه وآله

لقد انشغل علماء الاجتماع الوضعي كثيرا بقضية أيهما أسبق وأيهما أهم.. المجتمع أم الفرد؟ وأخذت هذه القضية جدلية واسعة على الساحة الفكرية الاجتماعية والفلسفية، فهنالك من يجنح إلى أصالة الفرد، ومنهم من يجنح إلى أصالة المجتمع.

ان الذين ذهبوا إلى أصالة الفرد ترتب على ذلك الاختيار ان ولدت الرأسمالية، أما الذين قدموا المجتمع على الفرد فقد ترتب على ذلك ان ولدت الاشتراكية، وبين هذا وذاك نجد رؤية النبي صلى الله عليه وآله.

وقد نقد الكثير من العلماء تلك الجدلية والأخذ والرد الذي استعر بين الجانبين، لأن ذلك لا طائل من ورائه، فقد قال ادواردكار: «ان السؤال عمن يأتي قبل: المجتمع أم الفرد؟ هو مثل السؤال عن البيضة والدجاجة، حتى لو عالجته كسؤال تاريخي فليس بوسعك ان تجري تبسيطا واحدا له، بطريقة أو بأخرى، دون ان تحتاج إلى تبسيط معاكس وأحادي مماثل، ان المجتمع والفرد لا ينفصلان فهما ضروريان ومتممان لبعضهما وليسا ضدين»[1].

(١) ما هو التاريخ؟ أدواردكار، ترجمة: ماهر كيالي وبيار عقل: ٣٣.

ولو أتينا إلى فكر النبيﷺ ومنهجه سنجد ان مذهبه الاجتماعي الذي أنتجه قبل أكثر من ١٤٠٠ سنة هو أصالة الفرد والمجتمع على حد سواء، وأعطى لكل جانب نصيبه وحقه الذي رُسم له من الماديات والمعنويات، وهو بذلك لم يبخس أيا منهما حقه.

فالفرد عند النبيﷺ هو المخاطب دائما في تغيير سلوكه وأفعاله ليعود على نفسه بالخير والسعادة، ومن ثم بعد ذلك يصل المجتمع إلى حالة من الرقي والسمو الحضاري؛ لأن الفرد له قابلية التأثير والتأثر كما للمجتمع ذلك، فهما مؤثران ومتأثران أحدهما بالآخر.

فلو كان الفرد في المجتمع غير مسؤول لا تهمه إلا نفسه فهو حينئذ سيكون غير مؤثر بالمجتمع، بل لا يعنيه التأثير به لا من قريب ولا من بعيد، وهو بذلك سيكون من الذين وصفهم الامام عليه السلام بالهمج الرعاع الذين ينعقون وراء كل ناعق، وهؤلاء هم الذين تعتمد عليهم السلطات الغاشمة في تمرير مشاريعها الهدّامة.

أما لو كان الفرد مؤمنا ذا عقيدة رصينة، يحمل أفكارا يريد لها أن تروج في المجتمع علّها أن تؤثر فيه وتساهم في انتشاله من حالة الفوضى والركود السارية عليه، فهذا سيكون من الذين أنعم الله عليهم في الدنيا، وفي الآخرة من أصحاب النعيم، فهو سيؤثر في المجتمع لا محال، وسيكون إلى جنب غيره من أمثاله اللبنات الرائعة التي يعوّل عليها في

بناء المجتمع الرسالي والحضاري المفعم بالإيمان والعلم والعزيمة.

وما تكلمنا عنه ينسحب على المجتمع كذلك، فإذا كان بشكله العام مجتمعا تحكمه العادات والتقاليد الرسالية الرائعة يقينا سيؤثر بالأفراد المنحرفين، ولا بد وأن سيأتي اليوم الذي يدرك فيه هؤلاء أنهم شواذ المجتمع وأراذله المنبوذون، عند ذاك سيجنحون إلى الجماعة العامة التي يسير عليها ذلك المجتمع.

أما إذا كان العكس من ذلك، أي المجتمع مجتمع رذيلة وانحطاط وتخلف، فإنه سيؤثر بالفرد المؤمن الضعيف، الذي لا يقوى على أن يسبح عكس التيار المجتمعي، وهذا الشيء خطير جدا، لأنه سيشعر بالشذوذ الاجتماعي، ومن ثم قد يشعر بأنه محارب من الناس الذين لا يتماشى مع رؤاهم وايديولوجياتهم، وبالتالي سيستسلم أسيرا لرحمة العدو، لأن الحرب الاجتماعية أصعب وأشد قهرا ومرارة من حرب الجيوش، وعلى عكس ذلك نجد ذلك المؤمن المجاهد الذي لا تأخذه في الله لومة لائم، سيكون كالجبل الأشم الذي لا تهزه الرياح مهما قويت واشتدت، وهذا هو مراد النبي من الفرد أن يكون عليه في دنياه التي هي مزرعة الآخرة، فإما النصر أو الشهادة في سبيل نشر الحق والعدل والقيم النبيلة، وبالتالي سيؤثر هذا الفرد في المجتمع تأثيرا آنيا كان أو مستقبليا، كزرع يأتي أكله ولو بعد حين.

مما سبق يتضح أن النبي ﷺ لم يكن في منهجه الاجتماعي كالاشتراكية الشرقية في هذه العصور تقدم المجتمع على الفرد، وما الفرد إلا أداة في خدمة المجتمع، فكان أن عانت الفردية ألماً عظيما في ظلها، كما لم يكن في الوقت نفسه يسير كالرأسمالية الغربية المعاصرة التي تقدم الفرد على كل شيء، وترى أن المجتمع ما هو إلا انعكاس للفرد الذي يُعد اللبنة الأساس له.

وبذلك فقد رسم الحبيب لكل من الفرد والمجتمع حدودا، قد عُيّنت في القرآن الكريم والسنة المطهرة اللتين جاءنا بهما ﷺ مشكورا ومحمودا، وبذلك فقد عاش الإثنان جنبا إلى جنب بسلام ووئام وتفاعل، كل يعرف ماله وما عليه.

ويجدر بنا أن نذكر أن الحياة البشرية لها ميزة خاصة يتوجب علينا ان نصفها بالحياة الاجتماعية، ولها وظيفتان.. أولا: ان الحياة الاجتماعية تتوقف على تقسيم الوظائف والمنافع والاشغال والمواهب ضمن حزمة من القوانين والتقاليد، أما الوظيفة الثانية فهي تقوم على الافكار والعقائد والاخلاق، فكل مجموعة من البشر يتوحدون بلحاظ وحدة الافكار التي يتبنونها، والعقائد التي يعتقدون بها، والاخلاق التي يسيرون بها.

اذن فالروابط الحيوية والحاجات الاجتماعية تعمل على توحيد

المجتمع والحياة البشرية بجاذبية بين الافراد، جاعلة منهم كالقافلة التي في طريق واحد، يربطها مصير واحد ونتيجة واحدة، فإما النجاح للجميع وإما التخلف لهم جميعا، وهذا ما أكد عليه الحبيب ﷺ.

وقد أعطانا النبي ﷺ مثلا رائعا يؤيد الكلام الذي قلناه آنفا، وذلك في معرض حديثه عن الحكمة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ شبه المجتمع بجماعة ركبوا سفينة، ولما توسطت بهم عرض البحر وجلس كلٌ في مكانه، بدأ أحدهم بالعمل على ثقب السفينة، ولما أنكروا عليه فعلته، قال إني حر فيما أعمل به، لأني أعمل ضمن حدود مكاني ولم أعتدِ على أحد، وهكذا فإن هم تركوه غرقوا وماتوا، وإن منعوه نجوا من الموت[1].

فالخلل المجتمعي المتأتي من أحد أبناء المجتمع هو خلل سيطغى على الجميع من أبنائه الذين يعيشون تحت ظله؛ ذلك إن هم تقاعسوا في تنبيهه وتقويمه، فالسوء والباطل والشر كالنار التي تأكل اليابس والأخضر معا.

ونفهم من الكلام السابق أن أهم ضامن للمجتمع من الانحلال من الروابط الحضارية والانسانية هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو العمود الفقري الذي يقف به المجتمع الاسلامي على قدميه، وبه

(١) ينظر: احاديث في الدين والثقافة والمجتمع، د. الشيخ عبد الهادي الفضلي: ١/ ١٢٧.

تقوّم كل آفات الانحراف والتخلف، ومن خلاله استطاع النبيﷺ أن يبني مجموعة من المنجزات التي بها نباهي الامم، ولا نعني بـ(الأمر) ذلك التسلط والتجبر على الآخرين، أو فرض الأمور بالقوة والسيف والحديد، إنما باللين والسياسة والحكمة التي بها تؤسر القلوب وتُذعن..

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون هكذا جزافا من غير تنظيم وتقنين وتقعيد؛ فقد وضع الحبيب المصطفىﷺ ضوابط رائعة ومقبولة من عند جميع الأجناس والألوان البشرية والفئات؛ حيث جاء لنا من عند ربه الكريم بما قالﷻ: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾[1].

وهنا نقول ان المنجز الحضاري والانساني للنبيﷺ على المستوى الاجتماعي اتخذ صورا وأشكالا متعددة، أبرزها:

أولاً: عدل النبيﷺ ومساواته الإنسانية.

ثانياً: الحرية والتعايش السلمي.

ثالثا: تحرير المرأة واقرار حقوقها.

رابعاً: التسامح والتعاون وكف الاذى.

خامساً: الرحم والجيرة والاخوة.

---

(١) النحل: ١٢٥.

اولاً: عدل النبي ﷺ ومساواته الإنسانية

مفهوما العدل والمساواة:

جاء مصطلح العدل من الجذر الصرفي الثلاثي(ع د ل)، وهو يدل على الانصاف والاستقامة، ومن ينظر في القران الكريم يجد أن هذه اللفظة ومشتقاتها وردت في نصوص عديدة، سواء بصيغة المصدر أو الفعل، وهي في غالبها تدل على معان متباينة يحددها السياق الذي ترد فيه.

وقد وردت الكلمات ذات الجذر اللغوي(ع د ل) في القرآن الكريم في ثمانية وعشرين موضعا بدلالات مختلفة[1]، غير أن هذا الاختلاف يتحرك ضمن مساحة محددة جاعلا منها متقاربة يجمعها معنى عام يمكن أن يجري على الجميع دون أي تقاطع وتغيير للهدف والمضمون.

والعدالة بكل بساطة تعني إعطاء الحقوق لأصحابها وانصافهم، وعدم التعدي على حقوقهم الفردية والاجتماعية، كما تعني في الوقت نفسه تجنب الظلم والجور، والابتعاد عن كل أشكال اللانظام والفوضى

(١) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي: ٤٤٨- ٤٤٩.

التي تترك أثرا سلبيا على الفرد والمجتمع على السواء.

وللعدالة مسارات وفروع متعددة، تتكون بحسب توجيه الباحث والكاتب وآلية التوظيف التي اعتمدها، وتعد العدالة الاجتماعية أهم تلك المسارات والفروع؛ لأنها تغطي على البقية من دون استثناء، بل ان كل الفروع والمسارات هي خادمة لها وتصب النتيجة عليها، كالعدالة السياسية والاقتصادية وما الى ذلك.

وما نبتغيه هنا من العدالة هو عدالة الحكومة في توزيع الحقوق والواجبات على الرعية بحسب ما يتمتعون به من قدرات وكفايات وبحسب الضرورة الاجتماعية التي تصب في الصالح العام، وتجنب الظلم والاضطهاد على الناس من الرعية التي تقع تحت رحمة الحاكم.

أما المساواة فهي مذهب يهدف إلى المساواة المدنيّة والسِّياسيّة والاجتماعيّة بين النَّاس «المساواة الاجتماعيَّة- المساواة لا تلِد حَرْبًا» المساواة أساس الإنصاف: عنُصرُه الأساسيّ على قدم المساواة: بالتَّساوي، دون تفضيل أحدٍ على غيره[1].

والعدالة والمساواة التي نريد دراستها هنا في هذا البحث هو ما أفاضنا به النبي الكريم من قول وفعل ومنهج وسلوك اقترن بالعدل والمساواة الانسانية التي يشير إليها العرف الإسلامي والاجتماعي في

(١) ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر: ٢/ ١١٤١.

عصرنا الحالي.

وإذا أردنا أن نعرف العدل النبوي ومساواته الانسانية فلابد لنا من معرفة العدالة والمساواة التي عرفتها البشرية عند أشهر الأمم القديمة والأديان السالفة؛ لنستطيع من خلالها أن نستشف الى أي مدى كان الحبيب صلى الله عليه وآله قد أقام العدل والمساواة، ومن ثم يمكن القيام بنظرة ثاقبة نتبين من خلالها الى ميزة عدل النبي ومساواته التي لم تطبق عند غيره من أصحاب الديانات التي حكمت بدول حركتها العوامل الدينية.

العدل والمساواة في الحضارات القديمة

من المصادر التي تحدثت عن الحضارات القديمة ديورانت صاحب الموسوعة التاريخية(قصة الحضارة)، وقد ذكر هذا المؤرخ والفيلسوف بأن حمورابي أشهر الملوك البابليين وسادسهم(ت ٧٥٠ ق. م) صاحب أول مدونة في القانون عرفته البشرية، غير أن الكلام يُنقض بما يراه بعض الباحثين الذين يذهبون الى أن حمورابي قد سُبق بقوانين وضعت من لدن أورنمو وأشنونا وليبيت عشتار، ثم جاء بعدها حمورابي وأخذها وعدّل عليها بما يتلاءم والمتغيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المستحدثة في عهده.[١]

وكان قانون حمورابي يحتوي على ثلاثمئة مادة، وأن هذه القوانين -على حد قول ديورانت- تمثل قمة الرقي القانوني[٢].. ويذكر حمورابي في مقدمة دستوره: «أنا حمورابي الملك الذي اختارتني الآلهة نيابة عنها لحكم البشر وإسعادهم ونشر العدل بين الناس، والقضاء على الشر

(١) ينظر: تاريخ القوانين والنظم الاجتماعية، غسان رباح: ٢٧. مقدمة في تاريخ الحضارات تاريخ العراق القديم، طه باقر: ١/ ٢٨٨.

(٢) قصة الحضارة، ديورانت: ٣/ ٩٠ ٩١.

والسوء.. أنا حمورابي الملك العادل والكامل.. أنا الذي تسلم القوانين من شماس إله الشمس والحقيقة والعدالة»[١].

رغم ذلك المدعى إلا أننا نجد هنالك قد سادت طبقية مقيتة في المجتمع البابلي، بل ان تلك القوانين التي يتبجح بها البعض من دعاة الوطنية والقومية هي من رسخت تلك الطبقية، وكيف كان الملوك يعتمدون على فئات اجتماعية دون أخرى، حيث كان هناك طبقة عليا في المجتمع هي من كانت تتمتع بالحقوق كافة دون غيرها، وهي طبقة الأحرار التي تسمى(الأمبلو).

أما أفراد الطبقات العامة التي كانت تدعى(الموشكينو) فقد كانوا يمارسون المهن والأعمال التي تخدم في النتيجة الطبقة العليا، والموشكينو تتكون من الفقراء والمعدمين الأحرار والرقيق المحررين والمنبوذين من الأحرار، وهؤلاء غير مساوين للطبقة العليا في الحقوق الاجتماعية.

فلو أخذنا مثلا القانون الجزائي من المادة(١٩٨) التي تتحدث عن عقوبة التشويه المقترفة بحق فرد ما ينتمي الى(الموشكينو)، حيث كانت تقتصر على دفع غرامة مالية مقدارها مينا من الفضة، بينما تشويه من ينتمي الى طبقة(الأمبلو) فإنه يعاقب بمثل ما اقترف من فعل، العين بالعين والسن بالسن حسب المادة(١٩٦) من قانون حمورابي.[٢]

(١) حضارة مصر والعراق، برهان الدين دلو: ٣٩٩- ٤٠٠.
(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٣٩٩ ٤٠٠.

فأي عدالة تلك التي قسمت المجتمع الى أحرار وعوام، أغنياء وفقراء، لهؤلاء حقوق غير التي لأولئك، وتطبق على هؤلاء أحكام غير التي تطبق على أولئك، فهل يمكن بعد ذلك أن نقول أن عراق حمورابي كان المجتمع فيه ينعم بالعدل والمساواة.

أما لو تركنا العراق وعرجنا على تاريخ مصر القديمة فحدث ولا حرج، حيث كانت الطبقية سمة بارزة في هذا البلد، فكانت هنالك العوائل الحاكمة والمقربة من الفراعنة، وكان هناك طبقة كبار الموظفين في البلاط، أما الفراعنة فكانوا يرون أنفسهم بأنهم الآلهة التي لها حق الملك والتصرف كيفما رأت في شؤون الناس والرعية.

بل من أبشع ما كان من الطبقية في هذه البلاد هو السلوك المُمارس من قبل المؤسسة الدينية التي كانت متسيدة في مصر القديمة، حيث كان الكهنة ورجال الدين ما فتئوا يعيشون في رخاء ونعيم على حساب الناس البسطاء.

فكانت طبقات من الناس تعيش الفقر المدقع، وأخرى تعيش الذل والعذاب والألم؛ لأن قدرها أن كانت من طبقة العبيد التي لا حظ لها من العيش الكريم في هذه الدولة.

ولو غادرنا تاريخ مصر القديم وذهبنا الى تلك الحضارات التي حكمت أوربا ردحا من الزمن، فإننا سنجد اليونان ومن بعدهم

الرومان بأن مجتمعاتهم كانت مقسمة الى طبقات، حيث كان هناك طبقة عليا من المواطنين الذين هم فقط أصحاب الثروة في تلك المجتمعات والذين يملكون الأرض ويتنعمون بنتاجها.

كما نجد هناك طبقة العامة الذين يتكونون من السكان الأصليين، اضافة الى صغار الملاك الذين يعملون على خدمة الطبقة العليا في المجتمع اليوناني والروماني القديم، وكان هؤلاء يتميزون بالفقر والحرمان والحاجة والفاقة، وهم يمثلون الطبقة الوسطى في ذلك المجتمع؛ لأنهم لا يباعون ولا يشترون، فهم أحرار.

أما الطبقة الثالثة فهي طبقة العبيد الذين يشكلون الغالبية من الناس في تلك الحضارات، فكانت مهمتهم العمل على خدمة الطبقات العليا من المجتمعين اليوناني والروماني، وكأنهم ما خلقوا إلا لينعم بهم غيرهم من خلق الله، وما هم سوى سلع تباع وتشترى في الأسواق[1].

أما بلاد الهند وحضارتها فنرى العجب العجاب مما فيها من طبقية، فقد قسم المجتمع هناك الى فئات وطبقات ومراتب، وكان ذلك التقسيم وفقا للديانة الهندوسية التي تتخذ من برهما إلهاً للناس تبعا لمكونات معبودهم العضوية.

فالبراهمة وهم الطبقة الأعلى والأرقى من بين الناس كافة عند

(١) ينظر: الذاكرة التاريخية للأمة، د. جاسم سلطان: ٣٣.

الهندوس؛ لأنهم خُلقوا من رأس ذلك الإله، ونجد القواد والصناع الماهرين قد صنعوا من أيدي ابراهام الإله، الى أن نصل الى أرذل الخلائق عنهم وهم العبيد والمنبوذون الذين لم يُخلقوا من أي جزء في إلههم برهما.

وما تحدثنا عنه من الظلم واللاعدالة وانعدام المساواة في المجتمعات القديمة من عراقية ومصرية ويونانية ورومانية.. ينطبق تمام الانطباق على الحضارتين الصينية والفارسية، حيث كانت الانسانية تئن من الاضطهاد والتسلط، كما نجد فيها أن الفقراء والمساكين ما كانوا إلا ماكنة بيد الأغنياء والحكام ليهنؤوا بما يكدّ هؤلاء الضعاف من البشر.

العدل والمساواة عند اهل الكتاب

في هذا الموضوع نريد ان نستبين العدل الذي عُرف به اليهود والنصارى، خصوصا عندما صعد نجم الديانتين، وصارت لهما دول وحكومات، فاليهود أقاموا لهم مملكة في فلسطين حكمت لسنين طويلة مستقلة وأخرى تحت سلطة الرومان غير المباشرة، أما النصارى فقد بان أمرهم بعد أن اعتنق الرومان تلك الديانة ونشروها في باقي البلدان الأوربية.

ولو أتينا الى اليهود أولا سنجد أنهم أمة بُنيت على الظلم والاضطهاد والطبقية، فالحكام كانوا يحكمون الناس بتفرد مطلق ولا يُقام لهم أي وزن وقدر، أما موظفو البلاط فكانوا يلعبون بمقدرات الرعية، حتى تكدست الثروة عندهم على حساب الناس الفقراء الذين لا حول لهم ولا قوة.

أما طبقة رجال الدين من الحاخامات وأضرابهم فحدث ولا حرج، حيث كان هؤلاء قمة في الظلم والفساد، وبؤرة في إشاعة التخلف بين الناس الفقراء وطبقاتهم المعدمة، وكانوا يعملون على بث الأكاذيب والخدع في اغوائهم وجعلهم يفعلون كل ما يؤمرون به من

قبل رجال الدين اليهودي.

وبذلك فقد شاع الفساد والظلم بين اليهود أنفسهم حدا لا يُتصور، وحتى بلغ الغاية الأعظم بعد ظهور السيد المسيح عليه السلام بينهم، وذلك عندما بدأ وأتباعه بالدعوة الى الدين الجديد للقضاء على الظلم والفساد والتحريف الذي شاع عند اليهود، غير أنه عليه السلام قُوبل بالعذاب والألم والتنكيل والتكذيب، حتى اتهموه بالسحر والشعوذة وحاشاه من ذلك، الى أن تآمروا على قتله، وأخيرا شُبّه لهم شخص فصلبوه على أنه عيسى النبي عليه السلام في نظرهم.

وإذا كان هذا الظلم فيما بينهم أنفسهم، فما بالك بالظلم الذي أوقعوه مع غيرهم من الناس والبشر؟! حيث ينقل لنا التاريخ عن تلك الجرائم التي اقترفوها بحق العزل وما زالوا، يندى لها جبين الانسانية، بل الأدهى من ذلك والأعجب أن ذلك الظلم وتلك الجرائم يعتبرونها حقا لهم، بل مما يؤجرون عليه عند الله تعالى.

ولو عرجنا ببعض القراءة في كتبهم المقدسة(المحرّفة) لوجدنا فيها كلاما عجيبا في الدعوة الى القتل والظلم تجاه الأمم الأخرى والتي ليست على دين اليهود، فمثلا نجد في التلموذ[1] من الكلام الخطير الذي لا تقبله الفطرة ولا أي ديانة فيها شيء من الانسانية، حيث يقول:

(١) هو الوجه الآخر للتوراة المحرفة! حيث يدعي اليهود بأن النبي موسى عليه السلام بعد أن تلقّى التوراة من ربه شرح له مشافهة كتاب التوراة!

«اقتل الصالح من غير الإسرائيلي، ومحرم على اليهودي أن ينجي أحداً من باقي الأمم من هلاك، أو يخرجه من حفرة يقع فيها؛ لأنه بذلك يكون حفظ حياة أحد الوثنيين»[١].

أما لو أتينا الى نص آخر فنجد فيه أنه يدعو الى اغتصاب النساء غير اليهوديات وأنهم بذلك في حل من أمرهم، لأن النساء غير اليهوديات لسن ببشر وإنما هنّ كالبهائم، والبهائم لا عقد لها، حيث يقول: «لا يخطئ اليهودي إذا تعدى على عرض الأجنبي لأن كل عقد نكاح عند الأجانب فاسد، لأن المرأة التي لم تكن من بني إسرائيل كبهيمة والعقد لا يوجد مع البهائم وما شاكلها»[٢].

بل أكثر من ذلك نجد من النصوص من يعتبر قتل اليهودي لغيره عملا عدلا، حيث يقول النص: «من العدل أن يقتل اليهودي بيده كل كافر لأن من يسفك دم الكافر يقرب قرباناً لله»[٣].

فيالها من عدالة تلك التي تدعو الى سلب حق الحياة، لا لشيء إلا لأنه لا ينتمي الى الديانة اليهودية، فأي كراهية عرفها هؤلاء القوم؟! وأي ظلم انتهجوه ليشوهوا به الانسانية وفطرتها العادلة الماتحة من السماء رشفات الحب والمساواة بين البشر؟!

(١) الكنز المرصود في قواعد التلموذ، د. يوسف نصر الله(المترجم): ٨٧.
(٢) المصدر نفسه: ٩٥.
(٣) المصدر نفسه: ٩١.

أما أموال الناس من غير اليهود فهي حلال على اليهود ان يأخذوها، يقول التلموذ بذلك: «إن الله حلّل أموال باقي الأمم لبني إسرائيل لما رآهم قد خالفوا السبع الوصايا المختصة بعبادة الأوثان، والزِّنَا والقتل والسَّرِقَة، وأكل لحم الحيوانات الغير مذبوحة، وخصاء الإنسان وإيلاد الحيوان من غير جنسه»[١].

ان ما يحويه كتاب التلموذ من دعوات الى القتل والاغتصاب والسرقة وإلغاء الآخر حري أن يعتبره العالم بأنه الكتاب الأول في الجرم والارهاب والعنصرية.

أما الظلم والجور الذي كان عند النصارى فهو لم يصل الى الحد الذي وصل إليه عند اليهود، لكن ذلك لا يعني أنهم كانوا على قرب من العدل أو أنهم قليلو ظلم فيما بينهم أو مع غيرهم من أهل الديانات الأخر.

والنصارى يتبنون التوراة في وصاياها وأحكامها فيما يسمى عندهم بالعهد القديم، إضافة الى الانجيل الذي أتى به نبي الله عيسىعليه السلام وهو المسمى عندهم بالعهد الجديد، ونحن لا ننكر ما في التوراة من الشيء الذي يمكن القول عنه بأنه عدل، إلا أنه بالقياس مع الظلم يكاد لا يذكر.

---

(١) المصدر نفسه: ١٥٢.

غير ان النصارى بعد أن صار لهم حكم ومملكة في أوربا ممثلة بالروم صار عندهم من الظلم ما هو عظيم، فتقاسم البلاط الملكي والكنيسة اضطهاد الناس وأكل أموالهم بالباطل، وأصبحت الأملاك ملكا لهاتين المؤسستين دون غيرهما من طبقات الشعب المغلوب على أمره.

ومن أبشع ما شاع في ممالك النصرانية آنذاك هو «صكوك الغفران» التي شاع رواجها في أوربا المسيحية إبان سيطرة رجال الدين على مقدرات الدولة والشعب والناس البسطاء، حيث كانت هذه الصكوك يستثمرها البابوات والبطاركة والمطارنة في استغلال البسطاء والمغفلين والاستحواذ على أموالهم، اضافة الى جعلهم أدوات بيد الكنيسة ورجالها الانتهازيين.

أما تسلط الطوائف وتجبرها على غيرها من الفئات المسيحية فذلك خطب عظيم، فقد تكرر في سيرة الطوائف النصرانية فيما بينها أحداث عظيمة لم تتخلف، وهو التجاء الجانب القوي إلى أعنف وأقسى وسائل الاضطهاد والتعذيب والتنكيل والحرق والإفناء، يسلطها على الجانب الضعيف... والعجيب أن المسيحيين(النصرانيين) اُضطهدوا من اليهود والرومان، ونزلت بهم الويلات في القرون الثلاثة الأولى، فلما بدأ جانبهم يشتد رأيناهم ينزلون نفس الويلات على أبناء دينهم، ومن هنا فنيت مذاهب مسيحية كثيرة كان بعضها في وقت ما له الغلبة في العدد ولكن تنقصه القوة والسلطان، وكان فناء هذه المذاهب بسبب قسوة اليهود والرومان أحياناً، وأحياناً بسبب قسوة فرق مسيحية

أخرى قويت واشتدت بالأباطرة وذوي النفوذ[١].

ومن أكثر الطوائف النصرانية التي عانت الأمرين من ظلم طائفة مسيحية أخرى هم الأقباط اليعاقبة الذين ذاقوا أشد أنواع العذاب من الأرثوذكس المتقوّين بالحكم والدولة، حتى اضطروا الى اخفاء عقائدهم كي ينجون من الموت الذي حكم على من لا يترك عقيدته، الى أن جاء الاسلام على مصر فجلب لهم حياة تقوم على احترام الآخر والسماح له بممارسة طقوسه التي يقنع بها ويتبناها[٢].

هذا مع من هم ينتمون الى الديانة نفسها، أما مع من هم من غير النصارى فكان الظلم والاضطهاد أعظم وأكبر، وكان من أعظم الظلم قد وقع تجاه المسلمين، خصوصا بعدما دخل الصليبيون الى القدس الشريف، فهذا أحد القساوسة وهو ريموند الذي كان شاهداً على ذلك حيث قال: «وشاهدنا أشياء عجيبة، إذ قطعت رؤوس عدد كبير من المسلمين، وقتل غيرهم رمياً بالسهام أو أرغموا أن يلقوا بأنفسهم من فوق الأبراج، وظل بعضهم يعذبون عدة أيام ثم أحرقوا في النار، وكنت ترى في الشوارع أكوام الرؤوس والأيدي والأرجل والأقدام وكان الإنسان أينما سار فوق جواده يسير بين جثث الرجال والخيل»[٣].

(١) ينظر: المسيحية، الدكتور أحمد شلبي: ٢٣٧.
(٢) ينظر: الدعوة الى الاسلام، توماس آرنولد: ٩٤.
(٣) قصة الحضارة، وول ديورانت: ١٥/ ٢٥.

ولا يوجد كلام أوضح وأبين من هذا الكلام الذي تحدث به شاهد ينتمي الى القوم المنتصرين، وهو في الوقت نفسه رجل دين كان ضمن الحملة التي اجتاحت ديار المسلمين ومقدساتهم.

ولنا شهادة أخرى من قبل أحد المستشرقين وهو ستيفن رنسمان في بيان تلك الأحداث الأليمة حيث قال: «انطلقوا في شوارع المدينة وإلى الدور والمساجد يقتلون كل من يصادفهم من الرجال والنساء والأطفال دون تمييز، استمرت المذبحة طوال مساء ذلك اليوم وطوال الليل، ولم يكن عَلَمُ تانكرد[1] عاصمًا للاجئين إلى المسجد الأقصى من القتل، ففي الصباح الباكر من اليوم الثاني اقتحم باب المسجد ثلّة من الصليبيين فأجهزت على جميع اللاجئين وحين توجه ريموند آجيل في الضحى لزيارة ساحة المعبد أخذ يتلمس طريقه بين الجثث والدماء التي بلغت ركبته»[2].

(١) تانكرد: هو أحد قادة الصليبيين الذين اجتاحوا القدس الشريف، كان له علم وراية رفعها المسلمون حين رأوه معلنين بذلك الاستسلام له.

(٢) تاريخ الحروب الصليبية، ستيفن رنسمان: ١/ ٤٠٤- ٤٠٥.

عدل النبيﷺ ومساواته الانسانية

العدل قبل كل شيء اسم من أسماء الله الحسنى واحدى صفاته تعالى جلّ ذكره، وأن الحديث عن العدل والمساواة التي عُرف بها النبيﷺ لا يمكن أن يُغطّى بهذه العجالة والوقفة البسيطة من لدن انسان مُغرق بالذنوب التي تعمي الأبصار في القلوب، فلابد لمن يريد أن يدخل البحر العظيم أو ينوي أن يصعد الجبل الشامخ أن يعد العدة قبل كل شيء.

وأنا رغم التهيب الذي انتابني وأنا أقدم على العظيم لأغوص في أعماقه وأخرج اللآلئ البيضاء فإنني أشعر بالنشوة التي هزت كياني، لأنني على كل حال سأنتشي من ذلك الـوِرْد، وارتشف منه رحيق الشفاعة المرجاة، من صاحب المقام العالي والمعين المحمدي الأصيل، حتما سأفوز بذلك وإن قل قدري واضمحل استحقاقي.

ومن يقرأ في سيرتهﷺ يجد أنه كان كثيرا ما يؤكد على الرعية وشؤونها في الدولة، حتى جعل النظر إليها والاهتمام بها من أهم المسؤوليات التي يجب على أولي الأمر مراعاتها.

والرعية هم المجتمع في اصطلاح القدماء والمحدثين، وأهم شيء في المجتمع هو سيادة العدل بين الناس ومجانبة الظلم والاضطهاد، فحب العدل حالة فطرية يقبلها العقل والمنطق ويحبذانها، بغض النظر عن الوازع الديني الذي كان يأمر بالعدل بين الناس في كل الجوانب التعاملية.

ونحن نعلم جيدا أن الظلم إذا حدث في المجتمع فإن له عواقب وخيمة لا تحمد عقباها، لأن ذلك سيجعل كثيرا من الذين يقع عليهم الحيف ينظرون الى النظام القائم بأنه عدو لدود، ولا يتوانون في الكيد به والانتقام منه متى ما سنحت فرصة لذلك، وتجارب الأمم حافلة بما يعزز دعوانا هذه.

فكم من حكومة وعلى مر التاريخ قد اندثرت بسبب ثورة الناس المضطهدين، وكم من مملكة حكمت الناس بالنار والحديد.. لكنها في آخر المطاف ذهبت أدراج ريح الانتقام، ذلك أن الشعوب مهما قبلت بالظلم فترة من الزمن إلّا أنها لا بد وأن سيأتي الوقت المناسب الذي يستغلونه للإيقاع بالحكم والقضاء عليه، خصوصا وأن الدول منذ أن كانت والى الآن بعضها يكيد بالآخر، وأخرى تريد السيطرة على تلك، فإذا ما كانت احداها تتميز بالظلم والطغيان فإن الشعب والجماهير ستتركها تلاقي مصيرها المحتوم، هذا إن لم تبادر هي الى الثورة أو التعاون مع أعداء السلطة للإيقاع بها، وهذا وجدناه في واقعنا المعاش،

فهناك أكثر من حكومة ظالمة قُضي عليها؛ لأنها لم تجد نصيرا من شعبها، لأن الجماهير أفضل ضمانة في بقاء وديمومة أنظمة الحكم وعدم سقوطها وانهيارها.

وكما قيل: العدل أساس الملك، والملك إذا لم يقف ويستند على العدل فإنه يقينا سيكون كذلك البناء الذي يقف على أرض وقاعدة هشة ورخوة، ومع مرور الوقت نجده مع حدوث أقل هزة أو أدنى زلزال فإنه سينهار بكامله، فالعدالة الاجتماعية هي الضمانة الأكيدة في قوة الحكم والملك والرياسة..

والعدل والمساواة التي عرفت عند النبيﷺ نستطيع بيانهما والتأكيد على انه كان يتمتع بهما من خلال حكمه وسياسته وإدارته لشؤون الرعية في دولته الاسلامية التي أقام عمادها على أرض المدينة المنورة.

وهذا الكلام يتخذ محورين: المحور الأول سنتكلم فيه عن العدل والمساواة من محورها النظري، والذي كان عبارة عن دعوة النبيﷺ للعباد من الانس والجن إلى العمل بهما، وكما يشمل الحديث عن أهميتهما في الحياة الدنيا، وهذا الجانب سيمتح من عينين نضاختين.

الأولى: وتتمثل في الآيات الكريمات التي تُحسب للنبيﷺ، لأنه هو الآتي بها والتالي لها بين الناس من المسلمين والكافرين على حدّ سواء.

أما الثانية: فهي تمثل الأحاديث النبوية الشريفة التي قالها الحبيب

في مناسبات شتى، وهذه الآيات بمعية الأحاديث سندرجها معا تحت عنوان واحد هو «العدل والمساواة في فكر النبي ﷺ».

بعد ذلك سنأتي على المحور التطبيقي من عدل الحبيب ﷺ، ويتمثل هذا المحور ببعض ما قام به النبي الأكرم من أعمال، وبعض ما انتهجه من سلوك مع الرعية من المسلمين، وأمثلة مما كان يقوم به تجاه الكافرين من المشركين وأهل الكتاب من تصرفات كانت قمة في العدل والمساواة، في زمن لا رقيب فيه على الـدول، ولا منظمات تعترض وتدين من يفعل الظلم والجور تجاه عباد الرحمن، وسنتناول هذا الجانب بالبحث والتحليل تحت عنوان «العدل والمساواة في سلوك النبي وأفعاله».

العدل والمساواة في فكر النبيﷺ

لو تأملنا في المنظومة الفكرية التي أتحفنا بها النبي الأكرمﷺ لوجدنا أن أهمية العدل عالية جدا، فهو يتصدر كل القيم التي أتانا بها الحبيب، وهو المقصد الأول لهﷺ، حتى أُقرت تشريعات عديدة لضمان تحقيقه.. فقرأ على العباد قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾[1].

بل نجد ان الشريعة المحمدية تأمر أتباعها باتباع العدالة حتى مع الكفار والأعداء، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**﴾[2]، فهي واجبة وإن خالفت هوى النفس وميلها الجامح نحو مصالح الذات والأنانية.

وفي الوقت نفسه نجد أنهﷺ قد أتحف أسماعنا بتراتيل انسانية عظيمة تنفي الظلم وتحرمه في دينه، فتلا قول الرحمن: ﴿**وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا**

(١) النحل: ٩٠.

(٢) المائدة: ٨.

الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾[١]، **﴿وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾**[٢]، فهو يبين ان الله ﷻ قد أهلك الامم في القرون الساحقة لما اقترفوه من أعمال وأفعال اتسمت بالظلم والجور على البرية.

ومن أهم ما جاء به النبي ﷺ تلك الآيات التي تحث على الابتعاد عن الجور، محرمة الظلم والتجاوز على الحقوق الإنسانية التي كفلها اسلامنا العظيم، فجاءنا بنواهٍ يجب عدم تجاوزها، **﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالحقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ۞وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ۞وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ..﴾**[٣]، فيالها من صور رائعة في العدل والعدالة، دعا إليها النبي محمد ﷺ في عصور كانت الانسانية تعيش ظلاما دامسا تحمل فيه أوزارا وآثاما مهولة.

أما المساواة بين البشر فهي عند النبي ﷺ نتيجة حتمية للعدل، حيث أكد على مراعاة الحقوق العامة والمساواة بين الناس، ذلك من

---

(١) يونس: ١٣.

(٢) الفرقان: ١٩.

(٣) الأنعام: ١٥١- ١٥٣.

خلال ما أتانا به من عند ربه: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾[1].

والمستفاد من هذه الآية هو ان التمدن والتعايش المجتمعي مما جبل عليه الناس جميعا، فهو كامن في أصل خلقة الفرد، والآية الآنفة الذكر تشتمل على درس أخلاقي هام، وهو أن الغاية المهمة منها هو التعارف، ذلك ان التعارف غاية القبلية والتشعب، فالأمم والقبائل والشعوب ما جعلها الله كذلك إلا من أجل ان يكون هنالك نظام اجتماعي ترتبط فيه الافراد بآلية تسمح أن يكون هنالك مجتمع، وذلك الشيء يفيد في التمييز بين الأشخاص ومعرفتهم، ولو لم يكن هناك انتساب يشمل أفراد البشر جميعا لما كان هنالك مماز بين الاشخاص وبالتالي فقدنا الحياة الاجتماعية المتشكلة من خلال روابط الافراد.

من ذلك نفهم ان الانتساب إلى القبيلة والأمة والعشيرة وما إلى ذلك من فئات المجتمع وطبقاته، لا ينبغي ان يكون غاية في التفاخر والاستعلاء؛ لأن الاساس في التفاضل هو التقوى، حيث ان الحبيبﷺ أتانا بما يبين فلسفة التفاوت بين الناس من حيث المواهب والكمالات الطبيعية التي أفاضها الله على عباده فقال: ﴿**أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ**

(١) الحجرات: ١٣.

فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾(١).

ان البشر متفاوتون في الامكانيات والطاقات، كما هم مختلفون في الاشكال والالوان، وقد فضل الله البعض على البعض الاخر، هذا التفاوت في المواهب والمعطيات جعل الافراد كلا يطلب الآخر ويحتاج له، وعلى هذا الاساس بنيت الحياة الاجتماعية واصطفت المجتمعات بالتكوين والتجمع.

كما ان قانون التسوية في الاسلام لا يلغي القوميات، بل يقُرّ بها وبهويتها، فهي أمور واقعية ليس لنا دخل في ايجادها، لذلك فالإسلام لا يعارض القومية بالمفهوم الثقافي، إلا أنه يخالفها بالمفهوم العنصري.

ولو أتينا إلى النبي محمد ﷺ لوجدنا أن من أهم الاسباب التي ادت وساعدت على نجاحه في بناء الدولة الاسلامية هو العدل والمساواة وسيادته في المفاصل الاجتماعية كافة، مما جعل الجميع يشعرون بانتمائهم إلى هذا الكيان الجديد، وأن جميع حقوقهم قد حُفظت في ظل دولة الحبيب ﷺ.

فكان كثيرا ما يوصي النبي بالعدل والاحسان والمساواة بين الرعية، فأفاض علينا من ربه: ﴿**إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى**

(١) الزخرف: ٣٢.

أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[١]، وأوصاهم بذلك حتى مع غير المسلمين، قالﷺ: «**من ظلم معاهداً كنت خصمه**»[٢]، كما قالﷺ حديثا قريبا من هذا المعنى: «**من آذى ذميا فكأنما آذاني**»[٣].

فهذا منطق النبيﷺ، ومنطق اسلامه الرحيم والكريم الذي يرى للإنسان حرمة وشأنا ما لم يتجاوز على حقوق غيره، فمن منا يستطيع نكران ذلك الوهج العظيم الذي أتت به شخصية الفذّ محمدﷺ؟! ذلك الجمر اللاهب الذي حرّق وما زال يحرق أشرعة الظلم السائد في المناطق التي حل بها، وتلك النار التي مذ ان اتقدت وهي تنير درب العدل للمهتدين بهديه، فصار الناس بمحمدﷺ متساوين.

وهـذا الدكتور ف. ف. بارتولد يتحدث عن عدالة الدين الاسلامي الذي جاء به النبيﷺ، فيقول: «لقد أثبت الإسلام خلال مئات السنين والأعـوام مقدرته على البقاء، وضرب المثل الأعلى في الإخاء والمساواة»[٤]، وهذه شهادة من رجل ومفكر ليس بمسلم ولا عربي، وإنما من رجل عرف العدل فنطق به.

(١) النساء: ٥٨.

(٢) راجع مستدرك الوسائل: ١١/ ١٦٨ ب٣. بحار الأنوار: ٧٤/ ٢١، ح٢ ب١.

(٣) البحار: ٣٢/ ٤٨٦ ب٢٩ ح٦٩١.

(٤) ينظر: مجلة الذكرى، العدد ٣، الدورة ١: ٦٤.

خُلق البشر جميعا نظائر متشابهين في الانسانية، بلا تمييز بينهم، فهم سواسية أخوة من حيث أنهم بشر، مما يقتضي التّواد والتّراحم بينهم، وفي السيرة الشريفة نماذج رائعة من المساواة في الإنسانية بين الناس، لعل أشهرها ما جاء في حجة الوداع، حيث روي عن الحبيب محمد صلى الله عليه وآله أنه قال: «**أيها الناس! إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لادم وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. قالوا: نعم. قال: فليبلغ الشاهد الغائب**»(١).

كما أفاض علينا الحبيب إفاضات رائعة وجميلة، ذلك ان الانسان لا يتحمل أخطاء الآخرين، حتى وإن كان مرتكب الخطأ والجرم آباء وأجداد ذلك الشخص، قال تعالى: ﴿**وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**﴾(٢)، كما ان الإنسان غير مسؤول إلا عن أعماله الخاصة، قال سبحانه: ﴿**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾(٣)، وقال عز وجل: ﴿**وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلا مَا سَعَى**﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ**﴾(٥)، كل هذه الآيات أتى بها النبي

(١) البحار: ج ٣١/ ٣٥.
(٢) الأنعام: ١٦٤.
(٣) البقرة: ١٤١.
(٤) النجم: ٣٩.
(٥) المدثر: ٣٨.

ليعالج ما كان سائدا من الأمور التي عانى منها سكان الجزيرة العربية، فكم من روح قد أُزهقت؟! وكم من نفس قد عُذبت؟! لا لذنب فُعل أو جريمة اُقترفت، إلّا لأن الضحية ينتمي الى قبيلة القاتل وقومه، وكم كان من الإخوان والأقارب يتحملون ذنبا لم يقترفوه أبدا، نعم هكذا كانت العادات والتقاليد تحكم في الجزيرة العربية وغيرها من المناطق.

أتى النبيﷺ الى الناس يبشرهم بأنه مبيد لتلك القيم، وأن من يعمل بها سيكون ظالما يستحق العقوبة، حاله حال من يفعلها دون تبرير، حتى استطاع الحبيب أن يقضي على ما ساد من عادة جاهلية راح ضحيتها كثير من الأبرياء.

كما روي عنهﷺ هذا الحديث الشريف الذي يؤكد على مسؤولية الإنسان واحساساته التي يضطلع بها، قالﷺ: «**كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راعٍ وهو المسؤول عن رعيته، والرجل في أهله راعٍ وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيتها، والخادم في مال سيده راعٍ وهو مسؤول عن رعيته والرجل راعٍ في مال أبيه وهو مسؤول عن رعيته وكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**»[1].

ومن أهم الأمور الاجتماعية التي جاءنا بها النبيﷺ هو ان

(١) عوالي اللآلئ: ١/ ١٢٩، ح٣.

النسب والقرابة والعلاقة والروابط القبلية في الإسلام لا تلغي العدالة والمساواة، بل هي محكومة بهما، فتتكافأ جهود الناس، كلاً بقدر ما ينتج من خير لنفسه ومجتمعه، يشير الحديث النبوي إلى هذه الناحية بقولهﷺ: «**يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب! لا اغني عنك من الله شيئاً لي عملي ولكم عملكم**»(١).

ان الصفة العامة والغالبة التي عليها الملوك في زمن النبيﷺ هي أنهم كانوا ينظرون الى أنفسهم بأنهم فوق مستوى البشر، وأن الناس عندهم كالعبيد، بينما نجد أن حبيب قلوب العالمين يعلنها بملء فيه الطيّب ومن عند الملأ الأعلى في قرآن ربه الكريم المتلو سرا وجهارا.. فيقول: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ**﴾(٢)، فكانﷺ المثل الأعلى في العدل والمساواة بالقول والفعل والتقرير.

فهوﷺ أكد ان المساواة من أبرز مبادئه، ودينه ليس كاليهودية التي جاءت لشعب الله المختار كما يدعي اليهود، فدعوته دعوة عالمية عامة لكل الناس: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ**﴾(٣)، وهوﷺ يرفض

(١) ينظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج١٨/ ١٣٤، وفيه:(قال النبيﷺ...**يا عباس بن عبد المطلب إني لا أغني عنك من الله شيئا إن أكرمكم عند الله أتقاكم**).

(٢) الكهف: ١١٠.

(٣) سبأ: ٢٨.

التعصب الأعمى والعصبية القبلية وينكرها أشد الإنكار، وكل من يدعو لعصبية فهو مطرود من حضرة النبي السمحاء، يقول صلى الله عليه وآله: «**ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قال بالعصبية، وليس منا من مات على عصبية**»(١).

وقال صلى الله عليه وآله معززا بهذا الاتجاه: «**إن الله تبارك وتعالى قد اذهب بالإسلام نخوة الجاهلية وتفاخرها بآبائها، ألا إن الناس من آدم، وآدم من تراب، واكرمهم عند الله اتقاهم**»(٢).

(١) ينظر: البحار: ٣١/ ٤٠.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ٤/ ٣٦٣.

العدل والمساواة في سلوك النبي وأفعاله

لو أردنا أن نستظهر العدل والمساواة من سلوك النبي ﷺ وتصرفاته لوجدنا ذلك في كل حركة خطاها، بل لأعطانا الحبيب معنى العدل الحقيقي الذي تجسد فيه قلبا وقالبا، كيف لا وهو المبعوث رحمة للعالمين؟! وهل ذلك بغريب في من قال فيه رب الرحمة والعدل بأنه على خلق عظيم؟.

ومن تلك المواقف المشرقة التي صارت منجزا يحسب للحبيب ﷺ هو أن المشركين من قومه ﷺ اقترحوا عليه أن يطرد عن نفسه الضعفاء المؤمنين به فرفض ذلك رفضا قاطعا، حتى جاء الوحي بما يؤيده من ربه ﷻ: ﴿**وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾[1].

وهنالك مواقف كثيرة جدا لا تعد ولا تحصى إذا أردنا عدها وفرزها، لكن في الاجمال يمكن لنا ان نلاحظ مدى تلك الجنبة الاجتماعية العالية القيمة التي أتى بها النبي ﷺ، حيث اسس مجتمعا

(١) الأنعام: ٥٢.

جُعل فيه العبيد والسادة سواسية كأسنان المشط، بل ربما في بعض الاحيان جُعل العبد أعلى مكانة وأرفع شأنا من بعض السادة؛ لما قدموه من خدمة للدين والمجتمع.

فهذا بلال الحبشي الذي كان عبدا وخادما عند أبي جهل وهو أحد الزعماء القرشيين المبرزين، قد سما بلال في ظلال النبي محمدﷺ، على العكس من ذلك نجد ان سيده أبا جهل وأضرابه من أمثال أبي لهب وهم مع ما هم عليه من المكانة والاهمية قبل الاسلام قد تسافلوا في نظر الاسلام حتى وصلوا الى الدرك الأسفل من النار.

ان الأفضلية والمكانة قبل مجيء النبيﷺ كانت تُبنى وتُعقد لأمور واهية، لا تمت الى القيم السامية والمنطق والحقيقة والاخلاق بصلة، فالمال والشهرة والتسلط والقوة هي من تتحكم بمكانة الأفراد في مجتمعات ذلك الزمان.

أتى محمدﷺ وغيّر تلك القواعد البالية والسافلة، ثم قام ببناء معايير وقواعد جديدة لا يُنظر فيها الى العرق واللون والقومية والشعب، بل ينظر الى الاخلاق والمنتج المقدم والحاصل الذي يفيد به الناس والأمة، فخير الناس من نفع الناس، وشرهم شرهم لخلق الله، فما أروع هذا المنجز الذي جاء به الحبيبﷺ من عند ربه الكريم.

قيل انه في ذات يوم كانﷺ في سفر، فأمر بإصلاح شاة أي ذبحها

وسلخها وطبخها، فقال رجل: يا رسول الله عليّ ذبحها، وقال آخر عليّ سلخها، وقال آخر عليّ طبخها، فقالﷺ: «**وعليّ جمع الحطب**». فقالوا يا رسول الله نحن نكفيك، فقال: «**قد علمت انكم تكفوني، ولكن اكره ان اتميز عليكم، فإن الله يكره من عبده ان يراه متميزاً بين أصحابه** وقام فجمع الحطب»[1].

فمن يتوقع أن ملكا أو رئيسا ما يكره أن يتميز على رعيته؟! نعم هذا هو ربيب الحق سبحانه الذي كان يأتي السائل الى مسجده يريد ان يسأله، فما إن يصل الى المسجد ويسلم حتى يسأل الحضور عن النبي فيقول: أين محمد؟! والنبيﷺ جالس بينهم كأحدهم، فالسائل لم يكن يتوقع وجوده بينهم لعدم وجود من يتميز عن البقية في المجلس والملبس والموقع، الله أكبر على هذا التواضع من عظيم البشرية والانسانية أجمع.

قيل أنه في احدى المرات التي أتى سائل يسأل عن النبي وهو موجود في المسجد بين أصحابه يعلمهم أمور دينهم ودنياهم، حيث كان السائل كالعادة لم يعرف النبي، حينئذ اقترح أحدهم على النبي أن يجعلوا له مجلسا في مكان مميز بينهم؛ لكي يعرفه من يأتي الى المسجد ويريد سؤاله، فكان جوابه أن رفض ذلك رفضا قاطعا، فجسد بذلك مساواته لهم من خلال واقعه السلوكي البعيد عن الشعارات الخادعة، والكلمات الفارغة التي استعملت ومازالت من قبل الملوك والحكام،

(١) سفينة البحار: ١/ ٤١٥.

والتي أُنتجت للتسويغ الاعلامي فقط.

وذات يوم اعترض المشركون على النبي صلى الله عليه وآله مساواته للأحرار بالعبيد والأراذل على حد قولهم، فأنزل الله على نبيه: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[1]، فخاطبهم باستفهام انكاري فقال: (أهم يقسمون رحمة ربك؟!)، فكان جوابه تعالى بأن وسائل العيش من استعداد ذاتي وما شاكل ذلك مقسومة بين البشر والخلائق من قبل الله تعالى نفسه، لكي يسخّر بعضهم في خدمة بعض في رفع حوائجه، وبذلك يكون الكل في خدمة الكل، أي أنت تخدمني في شيء، وأنا أخدمك في شيء آخر، وهلم جرا.

ومن تلك الشُعل المتوهجة على مرّ القرون والأزمان عدالته مع الرعية من الأتباع في تطبيق القانون، فكانت الأحكام لا تسوّف بأي حال من الأحوال، حتى لو كان المراد تطبيق الحكم على النبي نفسه، أما بيت مال المسلمين فكان يُعطى منه كل من يحتاج رغم قلة امكاناته، وكانت المؤن توزع على الناس على قدر حاجاتهم، فلم يكن يخضع للمحاباة والوساطة والمحسوبية، فهاهم آله قد تعرضوا الى أعظم الابتلاءات بالفقر والحاجة، ذلك عندما باتوا ثلاثة أيام من دون أكل وغذاء، نعم فبنت النبي وزوجها ابن عم النبي والحسن والحسين عليهم السلام

(١) الزخرف: ٣٢.

لم يجدوا ما يسدون به رمقهم وهم أهل النبي الذي كان يحكم الدولة وبيده كل شيء.

لقد كان أبلغ درس ألقاه الحبيب ﷺ في الأيام الأخيرة من حياته الشريفة وفي مرضه الذي توفي فيه، إنه كما قال الرواة قد قال سوادة بن قيس للنبي ﷺ في ايام مرضه: يا رسول الله انك لما اقبلت من الطائف استقبلتك، وانت على ناقتك العضباء، وبيدك القضيب الممشوق، فرفعت القضيب وأنت تريد الراحلة فأصاب بطني، فأمره النبي ﷺ ان يقتص منه فقال: اكشف لي عن بطنك يا رسول الله، فكشف عن بطنه. فقال سوادة: أتأذن لي أن أضع فمي على بطنك، فأذن له فقال: أعوذ بموضع القصاص من رسول الله ﷺ النار يوم النار، فقال ﷺ: «**يا سوادة بن قيس أتعفو أم تقتص؟**» فقال: بل أعفو يا رسول الله، فقال: «**اللهم اعف عن سوادة بن قيس كما عفا عن نبيك محمد**»[1].

وهذه شهادة رائعة من اينين دينيه حين قال: «لقد(دعا) عيسى [عليه السلام] إلى المساواة والأخوة، أما محمد [ﷺ] فوُفّق إلى(تحقيق) المساواة والأخوة بين المؤمنين أثناء حياته»[2].

(١) سفينة البحار: ١/ ٦٧١.

(٢) محمد رسول الله: ٣٢٣.

الحرية والتعايش السلمي

ان الحديث عن الحرية في الاسـلام والتي جاء بها نبي الرحمة محمدﷺ حديث شيق، فيه من الخير الكثير والغِنم الوفير، به ندافع عن النبي العظيم، ونرفع عن وجهه المطهر غبار المظلومية الكبرى، التي أُلصقت به ظلما وعدوانا؛ لنعيد له تلك اللوحة.. سامية النضارة والرونق البهي الجميل.

إننا في منهج مشروعنا لا ندّعي دعوة بلا دليل، ولا نحكم لعصبية بلا تأصيل؛ فنحن آخـذون بذلك من المنبع الصافي، وماتحين من المنهل الرائق الأصيل، يشهد على ذلك ما جاء بهﷺ نفسه من الآيات المحكمات، والأحاديث الشريفة المبينات، وما أفاضه علينا من السيرة المباركة التي عُطرت بها أرض الجزيرة العربية.

فالنبي كان يهدف إلى ان يحرر الناس مما عُلقوا فيه من الأسر والقيود، ليجعلهم في حرية كاملة لا مشوبة فيها، وهي لا تتوقف على جانب دون آخر، فقد اتخذت أشكالا متعددة ومختلفة وفي جميع مجالات الحياة، قال تعالى: ﴿**وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ**

عَلَيْهِمْ﴾[1].

فالناس جميعاً احرار في الدول الإسلامية المحمدية، في سفرهم، وإقامتهم، وزراعتهم، وبنائهم، وعملهم، وتجارتهم، وما الى ذلك من أمور الحياة الاجتماعية، وجميع النشاطات الثقافية، والاقتصادية، والسياسية وغيرها، إلّا في المحرمات الشرعية وهي قليلة جداً.

فهناك كثير من الأمور والقضايا التي يمكن من خلالها رؤية الجانب الذي يتم به الوقوف على الحرية المحمدية، ومن ثم التأكيد على تأصيلها اسلاميا.. وهي كانت مع كثير من الطوائف التي لا تدين بالإسلام ولا تعتقد به دينا من عند الله سبحانه وتعالى، لذلك سنتكلم عن الحرية مع المشركين، والحرية مع أهل الكتاب، إضافة إلى مسألة الشورى.

(١) الأعراف: ١٥٧.

حرية المشركين

إن أهم شيء يمكن ملاحظته في ذلك هو حرية الدين والعقيدة، فالنبي لم يفرض الاسلام بالسيف كما يريد ان يشيع الذين في قلوبهم مرض من المستشرقين وأضرابهم، بل ان السيف قد اُستعمل مع أولئك الذين وقفوا بوجه النبي ومشروعه السماوي، حتى أرادوا اطفاء نور الله بأي وسيلة، ولو استدعى ذلك النار والحديد.

نعم، فالنبيﷺ وعلى مدى أكثر من عشر سنوات لم يرفع السيف بوجه أي أحد كان من الناس، بل كان جل دعوته بالحكمة والموعظة الحسنة التي أرادها الله تعالى ان يتعامل بها الرسول مع البشر جميعا.

فهذه آيات القرآن نجد فيها أن الحق تعالى أقر لنبيه الكريم ان: **﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ۞لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ۞وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ۞وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ۞وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ۞لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾**[1]، حيث نجد فيها انهﷺ قد أعطى للمشركين حرية العقيدة التي بها يسيرون، وأوضح ما يكون ذلك عندما قال لهم: **لكم دينكم ولي دين**، فالمشرك حرّ في ما يراه من العبادة التي يريد ان يبقى عليها، إلا

(١) الكافرون: ١ - ٦.

أن ذلك مشترط بعدم صدّه للدعاة من المسلمين، وعدم اشهاره الحرب في سبيل اطفاء نور الله سواء أكان بأفواههم أم كان بالسيف البتار الذي اتخذوه فيما بعد خيارا ومنهجا لإبادة الإسلام والمسلمين.

وهنا علينا أن نبين ان النبي ﷺ لم يعطِ المشروعية للمشركين بأن دينهم حق، ولم يعطِ لهم حق الممارسة لعبادتهم الوثنية علنا وعلى الأشهاد؛ لأن ذلك الشيء لم يكن مستقلا بحد ذاته، وإنما هنالك متعلقات وأمور لها ارتباط بتلك العقيدة المنحرفة، نعم فكثير من السلوك والتعاملات لها أسباب تتعلق بالفكر والايديولوجيا كما يذهب الى ذلك علماء النفس والاجتماع.

فهو أراد من خلال ذلك أن يبين للعالم آنذاك والى الآن بأنه لم يأت من أجل إلغاء الآخر، وإنما لأجل أن يقضي على الظلم الذي استشرى في العالم آنذاك، ذلك الأخطبوط القائم على العقائد والافكار الفاسدة والمنحرفة التي يبيح لأتباعها الظلم والجور على الناس، وتوفر لهم الغطاء العرفي الاجتماعي بذلك.

وهو ﷺ لم يعمد على ان يدخل الإيمان الى قلوب الناس بالقهر والقوة؛ لأن ذلك الشيء لا يمكن لعاقل أن يقول به، ولم يعمد يوما الى ذلك الشيء بتاتا، ولنا في قضية المنافقين الذين كانوا يرتعون تحت خيمة النبي في المدينة المنورة بالحماية والحقوق المثال الأعظم في ذلك.

فالمنافقون كانوا معروفين بأنهم يظهرون الإيمان ويسترون الكفر والإشراك، فالكل كان يعرف أمرهم، وقد كان رأس النفاق عبد الله بن أُبي يعيش في المدينة المنورة الى جنب المسلمين، بل كان يشارك المسلمين حروبهم رغم الخشية من غدره، وبهذا الحد سمح لهم أن يعيشوا مع المسلمين بسلام، لهم ما لغيرهم من المسلمين، وعليهم ما على البقية ضمن دولة الاسلام، بل كانت تجرى عليهم كل أحكام الإسلام، وهذا الشيء قمة في المساواة التي يندر أن يوجد لها مثيل.

ربما يقال مالفائدة إذاً من شهادتهم بالإسلام إذا كانوا يُبطنون الكفر؟! خاصة إذا كان اغلب المسلمين يعلم حقيقتهم، إن الجواب على هذا السؤال هو أن النبي كان في حالة حرب فكرية عسكرية، وإن صح التعبير هنالك حرب بين فسطاطين: الخير والشر، ولكي يغلب فسطاط الخير وينتصر آنذاك على الشر كان يحتاج الى بعض الاستراتيجيات التي من ضمنها شيوع الفكر والعقيدة التي جاءت رحمة للعالمين، فكان أن قبل بوجود الشخص المبطّن بالكفر والمتستر بالإسلام، يعيش ضمن رعيته وفي مسؤوليته شرط اعلان كلمة التوحيد، لأن النبيﷺ يتعامل مع الناس وفق الظاهر، أما المضمر والمستور فعلى الله تعالى حسابه.

وهذا تدبير ذو جانب إعلامي ونفسي، له تأثيره على الصعيدين الداخلي والخارجي، فهو من جهة يكثّر سواد المسلمين، ومن جهة أخرى يعطي الأمان لفئات من المشركين الذين كانوا ضمن صفوص

الأعداء الذين كان بعض منهم يهون عليه أن يلهج بالتوحيد فقط دون أي تبعات أخر.

وقد يقول قائل هل بقي المنافقون على وضعهم التعاملي من قبل النبي؟ نقول لا، لم يبقَ على ما هو عليه، لأنهم قد غدروا بالمسلمين وخانوهم أبشع الخيانات، بل إنهم خانوا وغدروا أكثر من مرة الى أن وصل السيل الزبى!

هذا مع المنافقين، أما مع غيرهم من الذين انطلت على الأكثرية حيَلهم وكانوا ممن أضمروا الكفر، فحدث ولا حرج، فهناك أكثر من شخصية معروفة قد أضمرت الكره للنبي ودينه، إلا أنها دخلت الى الاسلام طمعا وفرصة للتسلق على جذعه، حتى نالوا ما لم يحلموا به من السيادة والرفعة والسلطة، فإلى الله المشتكى.

حرية أهل الكتاب

لقد نَعِم أهل الكتاب من اليهود والنصارى وأضرابهم بحرية تامة من النبي محمدﷺ، شريطة أن لا يحاربوا أو يغدروا بالنبي وأتباعه المؤمنين، حيث أجرى مع اليهود مثلا معاهدات ومواثيق في هذا الجانب، جعلت تلك المعاهدات من اليهود مواطنين متساوين مع المسلمين، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم.

لقد أعطى النبي لليهود فرصة ذهبية لم تُعطَ لهم من أي سلطة أو دولة عاشوا فيها أو بالقرب منها، بل لم يعطهم الرومان النصارى عشر ما أعطاهم الحبيب، ولا البابليون العراقيون عهد نبوخذ نصر، ولا الفرس المجوس الذين احتلوا بلاد الشام وبيت المقدس.

فكانﷺ السبّاق لأن يمنح اليهود حرية العبادة والطقوس التي يؤمنون بها وفقا لمعاهدات قد وقعت بين الجانبين، وشُهّد عليها الشهود من الطرفين، كما أخذت الأيمان في توكيدها، وكانت الأيمان بالله والمعتقدات التي يقدسون، كل ذلك دون مقابل، سوى شروط بسيطة لا تتعدى القبول بالعيش في كنف الدولة الاسلامية، وفقا لقوانينها بقيادة النبي الأعظم.

بل نجد أن الفرصة التي كان على اليهود عدم التفريط بها بذلك العهد، لأنهم كانوا قد هُددوا من الشمال من قبل الروم النصارى بالإبادة والتنكيل، كما كانوا مهددين من العرب النصارى الذين انتشروا بأكثر من بقعة، ناهيك عن الحبشة الموطن الكبير للنصارى في ذلك الزمان.

أما النصارى والمجوس فهم كاليهود فيما إذا أرادوا العيش مع المسلمين جنبا الى جنب، مقابل جزية يدفعونها الى الدولة كضريبة عن توفير الحماية لهم ومستلزمات الحياة الاخرى، وهذا لا يعني أخذ المال منهم(أتاوةً) لأنهم ليسوا بمسلمين؟ لأن المسلم أيضا عليه أن يدفع للدولة الزكاة والخمس وما شاكل ذلك من الأموال التي تدفع كضريبة، على أن توفر الدولة استلزاماتها تجاه الرعية من الأمن والحماية والعيش الكريم، وكل ما لا يمكن الاستغناء عنه بأي حال من الأحوال.

ان المبدأ الاساس والاصيل الذي جاء به النبي ﷺ والذي يُبتنى عليه هو سماحته مع الاختلاف الفكري والعقائدي بين الناس، أتى رافعا صوته تاليا آية الرحمن التي تقول: ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾[1].

وهذا يعني بطبيعة الحال ان دار الاسلام بالمصطلح الديني تتسع لغير المسلمين، ولا يجب ان تكون نقية من أي جهة ذات توجه غير اسلامي.. وأتباع هذه الاتجاهات وهذه الأفكار لهم من الحقوق

(١) البقرة: ٢٥٦.

والواجبات التي يتمتعون بها كأي شخص آخر من المسلمين، وأن الإنسانية قد كُفلت لهم من قِبَل من جاء بالإسلام وشرعته ومنهاجه القويم.

والنبي عندما يعطي غير المسلمين حرية الوجود داخل المجتمع الاسلامي فهو لا يعطيهم الشرعية في ان يعملوا على هدم الدين من خلال الدعوة إلى العمل ضده أو ما شاكل ذلك، وأوضح مصداق لذلك قد وجدناه في سيرتهﷺ عندما عمل على سن المواثيق والمعاهدات مع اليهود، مع ما هم عليه من المكر والخداع والخيانة، فسمح لهم بالعيش مع المسلمين داخل الدولة الاسلامية جنبا إلى جنب، ولم يطردهم من المدينة إلا بعدما نكثوا العهود، وانقلبوا على النبي بتحالفهم مع الاعداء والكافرين أملا منهم في القضاء على الدين وأتباعه الميامين.

ومن أوضح الدلائل على حرية أهل الكتاب تلك القصة التي جسّدها النبيﷺ، والتي لم تكن بدعا من القول أبدا، إنها قصة المباهلة التي انتهت بعقد معاهدة ووثيقة اتفاق، هو ذلك العهد وحكم التراضي بين النبي من جهة ونصارى نجران من جهة أخرى، حيث نجد ان النبيﷺ قد تعهد لهم بضمان حريتهم الدينية في العبادة والشعائر التي يتبعون، وذلك واضح وجلي من خلال المعاهدة التي أبرمها معهم.. وهذا آدم متز الكاتب الغربي البعيد عن الاسلام نراه يمدح الحرية الدينية التي أتى بها الحبيب محمدﷺ، فيقول: «إن أكبر فرق بين

الإمبراطورية الإسلامية وبين أوروبا التي كانت كلها على المسيحية في العصور الوسطى وجود عدد هائل من أهل الديانات المختلفة بين المسلمين وأولئك هم(أهل الذمة) الذين كان وجودهم من أول الأمر حائلاً بين شعوب الإسلام وبين تكوين وحدة سياسية.. واستند أهل الذمة إلى ما كان بينهم وبين المسلمين من عهود وما منحوه من حقوق فلم يرضوا بالاندماج مع المسلمين وقد كان وجودهم سببًا لظهور مبادئ التسامح التي ينادي بها المصلحون المحدثون وكانت الحاجة إلى المعيشة المشتركة وما ينبغي أن يكون فيها من وفاق مما أوجد من أول الأمر نوعًا من التسامح الذي لم يكن معروفًا في أوروبا في العصور الوسطى ومظهر هذا التسامح نشوء علم مقارنة الأديان، أي دراسة الملل والنحل على اختلافها، والإقبال على هذا العلم بشغف عظيم»[١].

كما نجده في الكتاب نفسه يذكر: «كان تسامح المسلمين في حياتهم مع اليهود والنصارى، وهو التسامح الذي لم يسمع بمثله في العصور الوسطى، سببًا في أن لحق بمباحث علم الكلام شيء لم يمكن قط من مظاهر العصور الوسطى، وهو علم مقارنة الملل..»[٢].

إنه ﷺ أعطى من خلال الدين السامي الذي أتى به شرعية لوجود عقائد ومذاهب واتجاهات فكرية مخالفة له وبعيدة عن نهجه، والنبي لم

(١) الحضارة الاسلامية: ١/ ٥٧.

(٢) م، ن: ١/ ٣٦٦.

يفرض على الاخرين من غير المسلمين اتباع منهجه من دون قناعة به، ولم يكرههم على اعتناق شيء من هذا القبيل اطلاقا.

فهوﷺ عندما حرر الناس من الاستغلال لم يضع مستغلا جديدا، لأنه في الوقت الذي حرر الانسان من الاستغلال حرره كذلك من منابع الاستغلال المنغمسة في دخالة نفسه، كما غيّر من نظرته إلى الكون.

ولم يأتناﷺ بآية واحدة فحسب، وإنما هنالك آيات أخر، تعالج قضية الحرية في العقيدة والفكر، يقول تعالى: ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾[1]، والله سبحانه وتعالى قد هدى الإنسان بسبيل النجاة، فأرسل الرسول والقرآن معه، ليسير في طريق التكامل الدنيوي، ويفوز بالجنة في الآخرة، كما بيّن له طريق الخسران والعذاب الخالد، ويبقى على الانسان اختيار الشكر بالإيمان أو الكفر والعذاب الأليم وسوء العقاب.

كما يقول تعالى: ﴿**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**﴾[2]، أي أن الله سبحانه وتعالى قد بيّن للإنسان طريق الخير والحق، كما بيّن له طريق الشر والباطل، والخيار للإنسان يختار بعقله ويسير وفق ما تمليه عليه عقيدته إن كان مؤمنا، أو يكفر بذلك كله ويتّبع هوى نفسه وإيحاء الشيطان الرجيم والعياذ بالله تعالى من ذلك، أو يكون بين ذلك متأرجحا صوب هذا

(١) الانسان: ٣.

(٢) البلد: ١٠.

مرة، ومرة صوب ذاك.

وعلى ذلك فالإنسان ليس مجبرا على العمل بشيء، ولا مسيّرا في أعماله وتصرفاته، فله كامل الحرية في ذلك، وهذا منجز يحسب للنبي الأكرم ﷺ.

وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿**فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۞ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ**﴾[1]، فالنبي ذكر ما أنزل الله عليه بأن مهمته التذكير بتوحيد الله وعبادته فقط، ولا سيطرة له عليهم فيما يعبدون من دون الله.

كما تلا الحبيب قول ربه المتعال: ﴿**وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾[2]، فيعلن على الأشهاد بأن الحق من الله وبالله، فإن شئتم أيها الناس أن تؤمنوا فآمنوا، وإن شئتم أن تكفروا فلكم كفركم وعلى الله جزاؤكم يوم القيامة.

وواضح فيما بيّن القرآن الكريم ما يكون عليه الحبيب مع الناس، فقال تعالى: ﴿**نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ**﴾[3]، فالنبي لم يكن جبارا مع الناس ولم يجبرهم على أي فكر أو عمل، إنما هو مذكّر ومنذر وحسب.

---

(١) الغاشية: ٢١- ٢٢.

(٢) الكهف: ٢٩.

(٣) ق: ٤٥.

ومن المناسب جدا أن ننقل ما جاء عن أحد الغربيين في هذا المجال، حيث يقول لان بول: انه في الوقت الذي كان التعصب الديني قد بلغ مداه، جاء الإسلام ليهتف: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[1]، وكانت هذه مفاجأة للمجتمع البشري الذي لم يكن يعرف حرية التدين، وربما لم يعرفها حتى الآن، وسار محمد على هذا المنوال مسيرة لم تعرف التردد.

أما الجزية التي تؤخذ من غير المسلمين فهي ليست أكثر من ضريبة تؤخذ من المواطن الذي يعيش في كنف الدولة الاسلامية، كما يؤخذ من المسلمين الخمس والزكاة وما الى ذلك من الصدقات، كل ذلك دليل على الحرية العظيمة التي أتانا بها النبي العظيمﷺ وهي تحسب له وللدين الذي أتى به من عند ربهﷻ.

ولا يوجد دليل على مزاعم بعض المستشرقين وأضرابهم من الذين في قلوبهم مرض، من أن دين محمد قد انتشر بقوة السيف وتحت تهديد الناس بالقتل، لأن جيوش الفاتحين المسلمين لم تطأ أرض اندونيسيا أو أفريقيا وأمثالها إطلاقا، مع ذلك نجد أن إندونيسيا تمثل الدولة الاسلامية الأكبر من حيث عدد المسلمين فيها، لقد أُستقطب الاسلام من خلال جمال عقيدته وسماحة شريعته.

فهذا لورافيشيا فاغليري يقول: «كان محمد[ﷺ] المتمسك دائمًا

(١) الكافرون: ٦.

بالمبادئ الإلهية شديد التسامح، وبخاصة نحو أتباع الأديان الموحدة»[١].

بل لدينا دليل تاريخي واضح كالشمس في رابعة النهار بأن القوة لوحدها لا تأثير لها ان لم ترفق بالعقل والخلق النبيل وما الى ذلك مما يجذب الانسان إليه، فمن ينكر أن المغول قد دخلوا الى البلاد الاسلامية وقضوا على نظامها السياسي والديني الذي كان متبعا، ولم يؤثروا على الناس بعقائدهم، بل على العكس من ذلك، فقد اعتنق السلاطين المغول الاسلام بعد سنين معدودة لا أكثر، ثم راحوا ينشرون الاسلام بأنفسهم في أرض الله، في وقت كانت السلطة والقوة بأيديهم، ان جاذبية الاسلام لا يمكن ان تنكر إلا من جاهل معاند للحق وإن كان الحق أبلج، وهذا رد جميل على من يقول أن الاسلام قد فُرِض بالسيف والقوة من قبل النبي صلى الله عليه وآله.

(١) قالوا عن الاسلام: ١٠١.

مسألة الشورى

من أبرز صور الحرية التي يتبجح بها الغرب علينا في العصور الحديثة هي الديمقراطية، وهي بأبسط تعريف لها تعني أخذ مشورة الجمهور في الامور العامة، وبالتالي سيكون لهم أثر في صياغة القرارات والقوانين التي تحتكم لها الرعية في ظل الدولة التي بها يعيشون.

ولو جئنا الى النبي محمدﷺ لوجدنا أنه قد اهتم بهذا الجانب قبل أكثر من أربعة عشر قرناً، فها هي الآيات البينات التي جاءنا بها من الرحمن الرحيم وتلك الاحاديث الشريفة وحيثيات السيرة العطرة أكبر دليل على ما ندّعي، قال سبحانه: ﴿**فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**﴾[1].

لقد أراد الحبيب ان يعلم أمته بأهمية اشراك الآخرين بالقرارات من خلال أخذ مشورتهم، حتى ورد مدح للذين ساروا بهذا المنهج القويم، فقال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**﴾[2].

(١) آل عمران: ١٥٩.

(٢) الشورى: ٣٨- ٣٩.

وكان النبي ﷺ كثيراً ما يقول ويؤكد:«**أشيروا عليّ أصحابي، أشيروا عليّ أيها الناس**»[١]، وقد بين ﷺ أهمية ومكانة التشاور وأثرها في المجتمع والنظام بشكل عام، حيث قال:«**إذا كان أمراؤكم خياركم وأغنياؤكم سمحاءكم وأمركم شورى بينكم فظهر الأرض خير لكم من بطنها**»[٢].

ومسألة التشاور التي تبناها النبي لا تعني أنه كان بحاجة لتلك المشورة، بل على العكس من ذلك، فهو إنما التجأ الى هذا الفعل وهذه الآلية إيمانا منه بأنهم سيشعرون بأهميتهم في الدين الجديد ومكانتهم عند النبي، وبذلك سيزيد من التفافهم حوله بما يخدم المشروع الرسالي الكبير، وهو إسلامنا الخالد العظيم.

إن مسألة الشورى دليل واضح على عدم استبداد النبي ﷺ برأيه وفكره، وهذا الطرح إنما يعبر عن الحرية العظيمة التي أعطاها للرعية في دولته الإسلامية، كما يعبر عن عقلية متفتحة لاستقبال كل رأي مخالف لرأي القائد الملهم من عند ربه بالصواب، فيا لعظيم سماحته؟، ويا لرقي حريته التي أقرها لرعيته بغض النظر عن الرتبة والحنكة والرأي؟!

إن الحرية التي جاء بها النبي الاكرم ﷺ يشهد لها الأبعاد قبل

---

(١) ينظر: تفسير القمي: ١/ ٢٥٨ سورة الأنفال.

(٢) ينظر: البحار: ٧٤/ ١٤١ باب٧ ح١.

الأقرباء، فمثلا يقول لوثروب ستودارد[١]: «الإسلام في عهده الأول، إنما كانت شمس الحرية مشرقة وهاجة، وديناً تجلت فيه المنازع الحرة الشريفة، وليس ما طرأ على العالم الإسلامي فيما بعد من الوهن والتدني بحاجب المنصف عن جوهر الإسلام وحقيقة صفائه، فالشريعة الإسلامية كما قال العلامة ليسبار إنما هي ديمقراطية شورية جوهرًا وأصلاً، وعدو شديد للاستبداد»[٢].

وقد أجمل قامباري هذه الحقيقة في شأن الإسلام بقوله: «ليس الإسلام ولا تعاليمه السبب المفضي بآسيا الغربية إلى هذه الحالة المشهودة من التضعضع واختلال الشؤون، ولكن السبب كل السبب في ذلك إنما هو استبداد أمراء المسلمين وحكامهم الذين التووا عن الصراط المستقيم.. وتنكبوا عن طريق صاحب الرسالة.. وناصبوا المذاهب الشورية والأصول الحرة العداء..»[٣].

(١) مؤلف أمريكي يتميز بسعة اطلاعه على معطيات العالم الإسلامي الحديث.

(٢) قالوا عن الاسلام: ١٦٢.

(٣) حاضر العالم الاسلامي: ٤/ ٤٣- ٤٤.

تحرير المرأة وإقرار حقوقها

جاء النبي محمد ﷺ والارض كلها تضطهد المرأة وتبخسها حقوقها، وبعد ان قام الحبيب بدوره التبليغي أخذت المرأة جانبا كبيرا من اهتمامه ﷺ، فقد أدرك أن ترك المرأة على ما كانت عليه من المغبونية سيكون له آثار سلبية على المجتمع والأمة، فالمرأة جزء مهم من المجتمع، بل هي المدرسة الأولى التي تتخرج منها الاجيال.

حقوق المرأة عند العرب الجاهليين

لقد ظُلمت المرأة في الجاهلية الاولى ظلما عظيما، إلى ان جاء النبي فانتشلها من ذلك الواقع المزري الذي حط منها ولم ينظر إليها إلا على انها بضاعة مزجاة، وفي الوقت نفسه كانوا يبذلون كل شيء في سبيل اشباع غريزتهم الشهوانية التي تعتمد اعتمادا كليا على المرأة، فهي لا تعدو ان تكون أكثر من بضاعة وحاجة ليس إلا.

لقد كانت المرأة تعيش في ظلام دامس لا ترى حتى نفسها بأنها كائن بشري، له حقوق كما لغيره على هذه البسيطة، فالمرأة هي ليست كالرجل كما الرجل هو ليس كالمرأة، وهذا لا ينفي تشاركهما في كثير من الامور، فلكل خصوصياته التي تلائمه.

ولو تأملنا قليلا في تاريخ الحضارات الانسانية ورأينا كيف كان يُنظر إلى المرأة لأصابنا الذهول من ذلك، فهناك ظلم تاريخي قد لحق المرأة طوال التاريخ، ولعل أكثره قد نشأ من خلال الجهل بالمكانة التي ينبغي للمرأة ان تكون عليها، وهذا الشيء لم يستثنِ دولة من الدول التي عرفها التاريخ الطويل للإنسانية.

فالمرأة عند العرب في الجاهلية مثلا كانت من أحط السلع بنظرهم التي لا يُعار لها أي اهتمام، فهي لا حق لها في ان تختار الزواج من عدمه، كما لا خيار لها من اختيار الزوج الذي تراه مناسبا، لأن الخيار آنذاك كان راجعا إلى وليها، فلا اعتراض لها ولا مشورة، كما نجد ان المرأة عند العرب لم تكن ترث شيئا، فالقيم العربية السائدة حينئذ لم تجعل للمرأة من نصيب مع الورثة.

بالإضافة إلى ان العرب كانوا اذا وُلد المولود ذكرا فرحوا به فرحا عظيما، بينما يُعلن الحداد إذا ولدت لهم أنثى، فتسوَد وجوههم أمام الناس وكأن عارا قد حلّ بهم جراء ذلك، هذا ان لم يقوموا بوأدها ودفنها وهي حية، بدواعي التخلص من العار الذي سيلحق بهم عندما تكبر، حتى نزل على النبي صلى الله عليه وآله: ﴿**وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ**﴾[1]، تعبيرا عن بشاعة تلك الجريمة التي يندى لها الضمير.

---

(١) التكوير: ٨-٩.

حقوق المرأة في الحضارات الماضية

لقد عانت المرأة في الأمم السالفة والحضارات القديمة الأمرّين من الاضطهاد والظلم وبخس الحقوق، فلو أتينا إلى بلاد فارس فنجد ان المرأة لم تكن بأحسن حالٍ من المرأة عند العرب، فالقوانين التي سنت باسم الديانة الزرادشتية كانت تحمل الظلم العظيم للمرأة، فأي خطأ يصدر عنها كانت تعاقب عليه أشد العقاب، وإن كانت النساء اللاتي يتمتعن بالجمال يصلن إلى أهم المراكز القيادية في البلاد، غير ان ذلك الوصول لم يكن من أجل المرأة واحترامها؟ وإنما كان من أجل الرجل وحسب، فهي لم تصل إلى تلك المراكز عند الساسانيين الملوك إلا لأجل اشباع الغريزة الجنسية الحيوانية.

ولو عرجنا إلى المرأة في الحضارة الهندية لوجدنا حالها يندى له الجبين، فهي لم تتعدى كونها مملوكة للرجل وله الحق ان يفعل بها ما يشاء، بل الأكثر من ذلك هو الجرم العظيم الذي يقترف بحق الانسانة الضعيفة المرأة عندما يموت زوجها، إذ انهم يحكمون عليها بالموت مع زوجها الميت، فتحرق معه بتلك النيران التي يحرقون بها الزوج الميت، فهي كتلك الحاجة التي خرجت عن الخدمة، وقد كان الاعتقاد فيما مضى عند الهنود ان المرأة هي مبدأ الانحطاط الخُلقي والانحراف الروحاني، وهي عندهم لا تستحق ان تكون من ضمن الكينونة الانسانية.

أما الحضارتان اليونانية والرومانية فلم تكونا بأقل حال من العرب

والفرس والهنود في ظلم المرأة والحط من شأنها، فهي لم تتعدَ أن تكون سلعة وحاجة للاستهلاك الشهواني، ومستودع لتصريف الغريزة الجنسية، فكانت تعاقب بأشد العقوبات لأتفه الأسباب، وكان من حق الرجل أن يفعل بها ما يشاء، فهي ملك له وهو حر التصرف بملكه.

هذا حال الشعوب التي عُرف عنها بأن لها حضارات بمقياسها المـادي، أمـا الشعوب المتخلفة والتي لم تعرف الحضارة ولم تذق طعمها، كمجاهل أفريقيا ومناطق أوربا النائية، كتلك المناطق المأهولة بقبائل الجيرمان أو المقطونة من شعوب الشمال والمعروفة بالشعوب الاسكندنافية، فحدّث عنها بلا حرج.

حقوق المرأة عند النبيﷺ

وبعد كل ذلك لو أتينا إلى منجز الحبيبﷺ لوجدنا أنه منجز عظيم، إذ حرر المرأة من تلك الكوارث التي كانت ترزح تحتها المسكينة الضعيفة التي لا حول لها ولا قوة، فأزال عنها تلك القيود والآسار التي كُبلت بها، فجعل لها نصيبا من الإرث، كما جعل لها رأيا فيما تريد أو ترفض من الرجال الذين يتقدمون لها من أجل الزواج منها، وقد كرمها أعلى تكريم عندما قالﷺ: «**اتقوا الله في الضعيفين**»[1]، أي المرأة واليتيم.

(١) البحار: ٧٦/ ٢٦٨.

كما نجد ان النبي ﷺ قد حفظ للمرأة كرامتها، من خلال عدم تكليفها بالعمل خارج البيت، ولها ان تختار بين ان ترضع الطفل بأجر أو من دونه، بل ليس من واجبها ان تخدم زوجها إلا بحدود معينة ذكرت في كتب الفقه الاسلامي، أما ما نراه في عرفنا من مهام تقوم بها المرأة فهي من باب العمل تطوعا.

فأين الانظمة الغربية من نبينا محمد ﷺ وهو الذي نظّم الشأن للمرأة؟ فهو الذي أسس النظم في حفظ حقها وعدم المساس بها، وهو الذي جعل لها مكانة راقية حقيقية، لا كتلك التي عند الغربيين والتي جعلت من المرأة سلعة تباع وتشترى، ويقضى بها الحاجات من الشهوات وغير ذلك.

بل حتى تلك الحرية التي أعطوها إلى المرأة والمساواة التي تبدو وكأنها نوع من الانصاف لها، ما هي إلّا لحاجة الرجل الجنسية، فهو أعطاها الحق للتبرج والاختلاط لكي يستمتع بناظره مع الجنس الانثوي.

كما ان حقوق العمل خارج المنزل التي كُفلت لها ما هي إلا وسيلة للتخفيف عن الضغط الذي يتعرض له الذكور والرجال بشكل عام، إضافة إلى العوامل الاقتصادية التي عملت على رفد المعامل والمصانع بالأيدي العاملة، بعد الثورة الصناعية الكبيرة التي اجتاحت أوربا

وأمريكا، ولتعويض نقص الأيدي العاملة من الرجال الحاصل فيها جراء الحروب والكوارث الحربية التي كانت مستعرة في أغلب الاماكن من العالم، خصوصا دول أوربا.

علينا ان لا نغتر بتلك الادعاءات التي نسمعها بين الحين والآخر، والتي تتحدث عن حرية المرأة ومساواتها بالرجل، والتي أظهرت أن الغرب هم أهل الانسانية وغيرهم لا، بل نجد ان الغربيين ومن غُرر به منه قبل مدعي الاسلام يلهج ليلا ونهارا على الاسلام وأهله، بأنهم يهمشون المرأة ويقصونها من أبسط الحقوق، فصاروا هم حملة ألوية الاصلاح الاجتماعي، وكأن الذي أتى به النبيﷺ كان السبب في ذلك التخلف والازدراء الحاصل اتجاه المرأة.

هذا ما أتى به النبي من عند ربه إذ يقول: ﴿**وَاللهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ**﴾[1]. فالمساواة واضحة في دين الاسلام المحمدي، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهل بعد الحق إلا الضلال؟.

وقد حثﷺ على الرفق بالمرأة واللين في التعامل معها وعدم الغلظة والشدة، فهي عنده كالقارورة التي لا تتحمل الضربة البسيطة،

(١) فاطر: ١١.

حيث قال: «**رفقا بالقوارير**»[١]، فما أرأفك أيها الرحيم بالمرأة؟! وما أشد عطفك عليها؟! بل ما أشد ظلم الحاقدين وهم يتهمونك بالإقصاء والتهميش للمرأة!

كما أننا من جانب آخر نجد ان النبي قد جعل للمرأة مكانة لم تعهد للرجال أبدا، حيث قال: «**الجنة تحت أقدام الامهات**»[٢]، ولم يقل أن الجنة تحت أقدام الآباء! كما قال عندما سُئل من رجل أيا من الناس يقدمه في البر.. فقال النبيﷺ: **أمك**، قال الرجل: ثم من؟ فقالﷺ: **أمك**، قال الرجل: ثم من؟ فقالﷺ: **أمك!** قال الرجل: ثم من؟ قالﷺ: **أباك**[٣].

ومما يحسب للنبي أيضا ان القرآن الكريم الذي نطق بهﷺ من عند ربه، قد قرر الاصل الواحد للنوع البشري، فقال: ﴿**يا أيها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً**﴾[٤]، وقال: ﴿**يا أيها النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ الله أَتْقَاكُمْ**﴾[٥]، فهذا اقرار بأصل النشأة والتكوين.

(١) المجازات النبوية، الشريف الرضي: ١/ ٣٣.
(٢) ميزان الحكمة، الريشهري: ١١/ ٣٦٨.
(٣) م، ن. وينظر: الكافي، ٢/ ١٥٩، ٩.
(٤) النساء: ١.
(٥) الحجرات: ١٣.

كما نجد ان النبي محمداًﷺ قد أعلن المساواة في الواجبات الاسرية والتكافؤ في الحقوق، فجاء الحبيب بأمر ربه وقال: ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ**﴾(١)، كما أعطى لها النبي الكريم حق المشاورة داخل البيت والاسرة، ليبين لنا الاهمية الكبيرة التي عنيت بها المرأة في ظل الاسلام المحمدي الاصيل.

فقد أتىﷺ بوحي من ربه يتلى آناء الليل وأطراف النهار متحدثا عن قضية جزئية نستشف منها العموم على بقية الموارد التي تلتقي معها ولا تتقاطع بغيرها من النصوص التي جاء بها، فرتل على مسامع المسلمين قوله: ﴿**فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِما**﴾(٢).

كما نقل عن ربه ان المرأة لها الحق ان تأمر الزوج بالمعروف في شأن الاسرة وأمورها وما يتعلق بحيثياتها.. فتلا: ﴿**وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ**﴾(٣)، كما أعطى النبي للمرأة من الحقوق الفكرية حالها في ذلك حال الرجل، فكان دائم التوجه والتذكير للمخاطب بغض النظر عن الجنس والنوع.

وقد أتانا عن النبيﷺ أنه حثّ الرجال على خدمة نسائهم، في

(١) البقرة: ٢٢٨.
(٢) البقرة: ٢٣٣.
(٣) الطلاق: ٦.

مفارقة تثير العجب بالنسبة لمجتمع طالما نظر إلى المرأة نظرة دونية، فقد وصلتنا رواية عنه أكد فيها على الرجل أن يخدم زوجته مثلما هي تخدمه، وهذا التبادل في الخدمة دليل على التعاون الأسري الأصيل، فقال: «**إذا سقى الرجل امرأته الماء أُجر**»[١]، كما بين أن الرجل يؤجر عند ربه على تلك الخدمة التي يقوم بها، فقال: «**إن الرجل ليؤجر في رفع اللقمة إلى فيِّ امرأته**»[٢]، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**خيركم خيركم لنسائه، وأنا خيركم لنسائي**»[٣].

وجاءنا أيضا ما فيه المدح والثناء لمن يسير بالعشرة الحسنة مع زوجته خصوصا وبقية أهله بشكل عام، فقال: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**»[٤]. فأي فكر وأي شخصية الآن وفي هذه الأزمان تحترم المرأة وتهتم بها بمثل ما اهتم بها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

ويشهد على روعة وحضارية النبي تجاه المرأة مارسيل بوازار: «.. أثبتت التعاليم القرآنية وتعاليم محمد[صلى الله عليه وآله] أنها حامية حمى حقوق المرأة التي لا تكلّ..»[٥].

---

(١) كنز العمال: ٥/ ٤٣-٤٤.
(٢) المحجة البيضاء: ٣/ ٧٠.
(٣) من لا يحضره الفقيه: ٣/ ٤٤٣.
(٤) من لا يحضره الفقيه: ٣/ ٥٥٥.
(٥) انسانية الاسلام: ١٤٠.

كما نجد ان المستشرق الغربي هنري دي كاستري يمتدح بملء فيه ما هو حق وعدل عُرف به النبيﷺ وإسلامه العظيم، فيقول: «إننا لو رجعنا إلى زمن النبي[ﷺ] ومكان ظهوره لما وجدنا عملاً يفيد النساء أكثر مما أتاه [ﷺ] فهن مدينات لنبيّهن بأمور كثيرة، وفي القرآن آيات ساميات في حقوقهن وما يجب لهن على الرجال..»[1].

(١) الاسلام خواطر وسوائح: ٥٨- ٥٩.

التسامح والمساعدة وكف الأذى

من كان يظن أن تلك المنطقة الملتهبة بالحروب والنزاعات القبلية ستكون يوما ما آمن منطقة على سطح هذه البسيطة؟! نعم فهذا مما يحسب للنبيﷺ، الذي استطاع بحكمته وحنكته أن يستميل قلوب الناس إليه، ومن ثم يعمل على تشكيلهم وصياغتهم وفقا للخُلق الطيب الكريم الذي امتاز به هو صلوات الله عليه.

إن المجتمع الذي نشأ وترعرع على الحرب وقيم الغزو والغلبة، وأن القوة هي الحاكم بين الناس، من الصعب قيادته وترشيده إلى تبني قيم التسامح والتعايش السلمي، غير أن المعلم العظيم استطاع ان يوجه الناس إلى ذلك الشيء في بضع سنين.

وتعميقا لروح التسامح والتعايش فإن النبيﷺ قد عمل هو به مع الرعية، حتى جعله من جملة مكارم الأخلاق التي طالما أكد عليها بترتيل أطيب الكلم: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق**»[1]، وقالﷺ: «**أدبني ربي فأحسن تأديبي**»[2].

(١) البحار: ٦١/ ٢١٠.

(٢) ن، م.

فالأخلاق تأمرنا بأن نعفو عمن أساء الينا وأن نغفر لمن تجاوز علينا؛ لينجلي التسامح ويشيع بين الناس، ويساهم في حركة الاصلاح التي أنشدها النبيﷺ، فتلى على مسامع الأمة أحلى الكلام وأعذبه من قول: ﴿**فَاعفُ عَنهم وَاستَغفِر لَهم**﴾، كما انه قد أتى إلينا من عند الله سبحانه بالأمر: ﴿**واخفِضْ جَنَاحَكَ للمُؤمنِينَ**﴾، وخفض الجناح كناية عن التواضع واللين والرفق.

كان من رحمة الحبيبﷺ أنه لم يدعُ على القوم الظالمين قط، فرغم الأعمال والافعال التي اقترفوها بحقه وحق أتباعه المستضعفين كان لا يجنح الى الانتقام والتشفي منهم، وأوضح مثال على ذلك ما كان يبدر منه من التعامل مع الأسرى من الكافرين الذين أتوا الى حربه والسعي الى تقطيعه وتمزيق أتباعه، فهو على العكس مما كانوا يجنحون، فالتعامل الحسن وتوفير المستلزمات الهامة من الماء والغذاء وبقية الحاجيات من أكثر ما كان يوصي بها الحبيب لهؤلاء وأمثالهم، تعبيرا عن سماحته ورحمته وخلقه النبيل.

لقد كان النبي في مكة يدعو الى التوحيد بما يقرب من ثلاثة عشر عاماً، واجه في هذه السنين أشد أنواع العذاب وأبشعها، نكلوا به وبأصحابه وأذاقوهم النار والحديد، حتى قتلوا منهم الخيرة الخيّرة، كآل ياسر المؤمنين بالله ورسوله والدين الذي ارتضى.

إن المشركين بعد أن عذبوا ياسراً وسمية قتلوهما شرّ قتلة، مع كل تلك العذابات، وكل تلك الآلام لم نجد النبي صلى الله عليه وآله قد رفع يدا أو سلّ سيفا، لإيمانه العميق بالسلم والجنوح الى التعايش والتسامح، حتى بلغ بذلك مبلغا عظيما جعل الأعداء يزدادون في غيهم وطغيانهم، مما دعا النبي فيما بعد الى ان يسل السيف دفاعا عن المستضعفين والمظلومين، بعد أن استنفدت كل المحاولات السلمية في تفادي الحرب والعداء.

وربما يقال ان النبي صلى الله عليه وآله لم يجنح الى السيف معهم لأنه كان ضعيفا لا يملك القوة الكافية في ذلك، لكننا نرد بالقول أن النبي قد كان في قمة عزه وقوته عندما فتح مكة، وكان يستطيع ان يفعل كل شيء في أولئك الذين فعلوا ما فعلوا، لكنه قال قولته الشهيرة التي لا ينكرها سوى معاند كافر بالله ورسوله، عندما أعلنها على الأشهاد بصوت عال جهور، فقال: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»[1].

فليدلنا المعاندون ومن دار في فلكهم على رجل قد فعل مع من قتّلوه وشرّدوه وأصحابه، بل فعل ذلك مع قاتل عمّه وحشي الحبشي، الذي بعد أن قتل حمزة مثل بجسده الطاهر بمعية هند أم معاوية بن أبي سفيان، فما كان منه إلّا أن عفا عنه ولم يحاكمه رغم أن ذلك عقابه لا يؤلب أحدا عليه ولم يواجه باعتراض، خاصة وأن وحشياً عبد حبشي لا يُخشى أن يكون لقتله صدى ولو كان بسيطا، لكنها سماحة محمد صلى الله عليه وآله قد وسعت

(١) البحار: ١٩/ ١٨١.

كل شيء.

كما كان موقفه مع أقطاب قريش وطغاتهم الذين كانوا السبب وراء كل ما حدث للنبي وأتباعه، فهل للغرب اليوم أن يدلنا على قائد أو ملك قد تعامل مع أعدائه وقاتليه بمثل ما تعامل النبيﷺ؟! وهل لنا أن نرى ونحن في القرن الحادي والعشرين أي نظام أو دولة من الدول التي تدعي التحضر أن تتصرف بمثل ما تصرف به النبي مع أشد أعدائه وأعتاهم؟!

إننا كمسلمين حري بنا أن نتخذ من ميلاد سيد البشر يوما عالميا للتعايش والتسامح بين الناس والشعوب، ونرفض تلك الحركات المشبوهة التي تدعي ظلما وجورا الانتساب الى النبي محمدﷺ، التي ما زالت تقتل وتفتك باسم الحبيب الموصوف بالرحمة للعالمين جميعا.

من جانب آخر نجد ان النبيﷺ قد أتانا بمنظومة من القوانين التي تنظم العيش والتعايش المجتمعي بين الناس، فأقر من وسائل الردع ما تكفل العيش بسلم وأمان، فمن يؤذي انسانا فعليه عقاب وتعويض لمن وقع عليه الأذى، كما ان عليه ان يعاقب بحسب القانون الاسلامي الذي سُن في الشريعة السمحاء.

والآية الكريمة في كتاب الله الكريم تشير الى هذا الشيء: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ**﴾[1]، فالقصاص هو العقوبات أو المظالم

(١) البقرة: ١٧٩.

التي شرعت من أجل ان يؤخذ من الظالم الحق ويُعطى الى المظلوم، وهناك مقولة شهيرة تذهب الى ان من أمن العقاب أساء الأدب، وهذا الشيء منطقي وعقلاني واضح.

فنظام العقوبات يشكل رادعا عن الإضرار بالمجتمع والتعايش الذي يسود فيه، موصلا الى تعايش يقوم على الأمن والأمان والاحترام المتبادل بين الناس، فلا يتعدى أحد على الآخر لوجود تلك القوانين.

أما قضايا المساعدة والتعاون الاجتماعي فإنها تعتبر من أهم الجوانب التي تعد بأنها منجزات حضارية أتى بها النبيﷺ، وتاريخ النبي حافل بتلك الأفعال التي تشهد لها كتب التاريخ أجمع، فهل يستطيع منكر أن ينكر أن النبي لم يهتم بأمور الناس ومساعدتهم؟!

فها هو الحبيب أتانا من عند ربه بآيات تقول: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾[1]، ففي هذه الآية أمر الهي جلي للناس كافة بأن يتعاونوا في أعمال البر والخير وكل ما هو صالح، وفي الوقت نفسه ينهاهم الله سبحانه عن الفعل العدواني الذي يتجاوزون فيه على الحقوق والممتلكات والأعراض، وما شاكل ذلك من الأمور المتصفة بالظلم والجور وبخس الحقوق، كل ذلك مما يحسب للنبيﷺ، فهو الناطق

(١) المائدة: ٢.

والناقل لهذا الدين وأحكامه وأدبياته.

وقد جاء في القرآن الكريم الكثير من الآيات التي تحض على العمل الصالح، والتي تريد من الانسان أن يكون ذا رأفة ورحمة مع غيره من بني البشر، حتى أن كل سورة توجد في القرآن الكريم عند الافتتاح بها عدا سورة التوبة أول ما يذكر فيها هو اسم الله جل ذكره، موصوفا بالرحمن الرحيم، فالرحمة الإلهية سبقت كل شيء، حتى صارت مرتكزا عند الجميع ان رحمة الله سبقت غضبه.

ونجد من التأكيد على عدم الاعتداء على الآخرين في أكثر من موضع من القرآن، فقد جاء حبيب الرحمن بقول ربه: ﴿**وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾[1]، وقد جاء الذم للمعتدين بيانا لقبحه في الاسلام وشدّة مبغوضية هذا الفعل الشنيء، كل ذلك يحسب للنبيﷺ، باني الحضارة الأصيلة في الأخلاق والبر والخير.

أكثر ما يوصف به النبي هو نبي الرحمة، والتراحم من أهم المزايا التي حضّ عليها اسلام محمدﷺ، فهي العنوان العام الذي يجمع تحته كل أعمال الخير والبر والعمل الصالح، ومساعدة الناس لا تأتي من الشخص إلا بعد ان تكون لديه رحمة ورأفة مودعة في قلبه، والتكاتف والتكافل مع الآخرين لا يكون من أي انسان إلا بعد ان يتصف بحب

(١) البقرة: ١٩٠.

الخير للناس، وهذا الشيء لم يكن يؤمر به اتجاه المسلمين فحسب، وإنما كان يتعدى الى غيرهم من اصحاب الديانات الأخر، من النصارى واليهود وما إلى ذلك.

كثيرة هي الأحاديث المحمدية التي تحث على التعاون والمساعدة، فمثلا لو أتينا الى قوله صلى الله عليه وآله: «**خير الناس من انتفع به الناس**»[١]، نجد أن الحبيب قد جعل من عمل الانسان تجاه الناس بالخير والفائدة معيارا ومقياسا في تفضيله.

إن الإهتمام المحمدي ان صح التعبير بأعمال الخير والبر ومساعدة الناس من المحتاجين وغيرهم قد قُدم على الجانب العبادي، وهذا واضح جلي يستشف من قوله صلى الله عليه وآله: «**خيركم من أطعم الطعام وأفشى السلام، وصلى والناس نيام**»[٢]، فها هو يقدم تلك الأمور على العبادة في كنف الليل والناس نيام، فتقديم اللفظ دال على شرفية المقدَّم على الأكثر في عرفنا الديني الإسلامي.

لم يُحث احد على التكافل والتعاون كما حث عليه النبي صلى الله عليه وآله، فقد جاء منه الأحاديث الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى في هذا المجال، فقد يصاب الانسان بنوع من الابتلاء والضعف والمحن، بل ان بعض الابتلاءات لا بد من المرور بها في أخريات حياة الإنسان إن منّ الله عليه

(١) البحار: ٧٢/ ٢٨١.
(٢) البحار: ٧١/ ٣٦٠.

بطول العمر، فالكهولة سنّة حتمية كُتبت على أولئك الذين يطول بهم العمر إلى سنين متقدمة فيه، من جانب آخر فإن الإنسان في بداية حياته عندما يولد سيكون هو الآخر ضعيفا محتاجا إلى الرعاية الشديدة.

إذن الإنسان في بداية حياته وآخرها محتاج إلى الرعاية والاهتمام من الأهل أو الأقرباء، أو ربما الناس الغرباء عندما لا يكون للإنسان أهل وأقرباء، لذلك جاء في الاسلام الذي جاء به محمدﷺ كثير من العوامل والأمور التي ترغّب الناس في رعاية هؤلاء الضعاف، ضامنة لهم الأجر والثواب في الدنيا والآخرة.

في الوقت نفسه نجد أن إسلام محمد قد خصص بعضا من الموارد المالية والضرائب التي فُرضت على المسلمين لتصرف في خدمة هؤلاء الفئات أو تُعطى لهم مباشرة أو لذويهم، إيمانا بالمساعدة لهذه الطبقة التي لا حول لها ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وكثيرة هي الأخلاق التي أفاضها النبي الأكرم على بني البشر، فهو دائما ما كان يحث على الأخوة والصداقة، والإحسان إلى الناس وحسن المعشر تجاههم، كما كان يحض على إطعام المسكين والفقير وسد كل ثغرة ممكن أن تؤدي بهم إلى الذل والانحراف ربما.

أكد الحبيبﷺ على الصدق والأمانة تنظيرا وتطبيقا، حتى لقب بالصادق الأمين قبل أن يعلن التوحيد، وقد مقت الخيانة والكذب مقتا

عظيما، حتى جاء من عند ربه بما يقول: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا**﴾(١)، وقوله: ﴿**إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ**﴾(٢)، وغيرها من الآيات البينات في ذم الخائن والخيانة والكذب والكذاب وما الى ذلك.

والنبي قد اهتم بالمجتمع أيما اهتمام، حيث نجده مثلا يقول عما يجب ان يكون عليه المجتمع من التراحم والتوادّ والتعاطف: «**المؤمنون في تبارهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى تداعى له سائره بالسهر والحمى**»(٣)، أما التعايش مع الجار بحب وسلام ومسؤولية فيقول: «**ما آمن بالله واليوم الآخر من بات شبعان وجاره جائع**»(٤).

نهى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عن اذية الناس أشد النهي في كثير من المواقف والأحاديث، وقد أفاض علينا بالقول الأروع المبيّن لذلك فقال: «**شر الناس من تأذى به الناس**»(٥)، جاعلا من ذلك الذي يُقدم على أذية الناس أكثر الناس شرا ومن ثم أبعدهم مكانة عند الله تعالى، هكذا إذا جعل الظلم للآخرين قمة للشر، بغض النظر عن الايمان من سواه.

---

(١) النساء: ١٠٧.
(٢) غافر: ٢٨.
(٣) البحار: ٧١/ ٢٣٤.
(٤) البحار: ٧٢/ ٣٦٢.
(٥) البحار: ٧٢/ ٢٨١.

وهذا غيض من فيض ما كان يعرف به الحبيب الأكرم محمدﷺ من الخلق الحسن تجاه المجتمع، وما أكد عليه في التعامل مع الناس من أعمال بر وخير؛ ليكون لدينا مجتمع متماسك وقوي مزدهر بالحب والوئام والتعايش السلمي بين جميع أطيافه دون استثناء قائم على التفكيك بين بني الانسان.

وهذا رودي بارت[١] العالم الألماني المعاصر نجده عندما يتحدث عن النبي محمدﷺ وما أداه تجاه المجتمع آنذاك يمدحه بالقول: «كان العرب يعيشون منذ قرون طويلة في بوادي وواحات شبه الجزيرة، يعيثون فيها فسادًا، حتى أتى محمد[ﷺ] ودعاهم إلى الإيمان بإله واحد، خالق بارئ، وجمعهم في كيان واحد متجانس»[٢].

أما لو عرجنا على الباحث الفرنسي المعاصر والأستاذ في جامعة السوربون إدوار بروي فنجده يقول: «وعندما قبض النبي العربي[ﷺ]، عام ٦٣٢م، كان قد انتهى من دعوته، كما انتهى من وضع نظام اجتماعي يسمو كثيرًا فوق النظام القبلي الذي كان عليه العرب قبل الإسلام، وصهرهم في وحدة قوية، وهكذا تم للجزيرة العربية وحدة دينية

(١) عالم ألماني معاصر، اضطلع بالدراسات الشرقية في جامعة هايدلبرغ، وكرس حياته لدراسة علوم العربية والإسلام، وصنف فيها عددًا كبيرًا من الأعمال، منها ترجمته للقرآن الكريم التي استغرقت منه عشرات السنين وأصدرها بين عامي ١٩٦٣ و١٩٦٦، وله كتاب عن النبي محمدﷺ.

(٢) الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية: ٢٠.

متماسكة، لم تعرف مثلها من قبل..»[1].

فهذه شهادة من مفكرَين ليسا بقريبين من الاسلام، بل هما محسوبان على قوم وأناس ربما قيل عنهم أنهم لا يعترفون بنبوته ﷺ، لكنهما قالا بمنطق الحق الأبلج، الساطع على رؤوس العباد والكافرين على حد سواء، أكدا دور الحبيب في جمع الفتيت المبعثر المتصف به مجتمع الجزيرة العربية، حتى صاروا مجتمعا واحدا متجانسا ومتلاحما وقويا يشار له بالهيبة والبنان، كل ذلك بفضل النبي ﷺ.

(١) تاريخ الحضارات العام: ٣/ ١١٢.

الرحم والجيرة والأخوّة

لقد أرفد النبيﷺ البشرية بقيم في غاية الأهمية بالنسبة للمجتمع، حيث يمكن اعتبار صلة الرحم والجيرة والأخوة من أهم العوامل التي تساهم في عملية تنمية المجتمع، والعمل على توثيق عرى وحدته وتماسك أجزائه.

وجاء التأكيد على صلة الرحم من قبل النبيﷺ، إذ أورد قول الرحمن في القرآن الكريم في الحث عليها بأكثر من موضع، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على اهمية الرحم في المجتمع، فمثلا في سورة الانفال يقول الحق تعالى: ﴿**وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ**﴾[1]، أي الارحام أولى بالإحسان والعطف والمغفرة والمحبة والتودد والمساعدة والارث، وما الى ذلك..

وبالطبع فإن هذه الاولوية ما جاءت اعتباطا، وانما منشؤها الرحم الواحدة التي ينتمي اليها ذوو الرحم، والحنية الخاصة والمحبة التي تجذبهم الى بعضهم البعض، حتى وان حصل بينهم مشادات ومخاصمات طارئة التي ربما تُحدث نوعا من العداء والكراهية المؤقتة التي لا تصمد

(١) الانفال: ٧٥.

أمام أي موقف يهز مشاعر الحنية والعطف تجاه الآخر القريب.

ومن أجل ذلك فقد أكد النبي من خلال القرآن على الإحسان الى الاقرباء فقال جل وعلا: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى﴾[١]، وقال في آية أخرى من سورة أخرى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ... وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾[٢]، بل ان بعض الآيات الكريمات حضّت وبصيغة الأمر على إيتاء المال للأقرباء وكأنهم شركاء في المال، حيث قال عز وجل: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾[٣]، وقال في موضع آخر: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى﴾[٤].

وقد ورد الحض على القربى في القرآن بإحدى عشرة مرة.. وما هذا التأكيد على الصلة الرحمية إلّا للأهمية الكبرى التي تتصف بها، وما يتأتى منها وما يترتب عليها من أمور وقضايا ذات صلة بالفرد والمجتمع بشكل عام، وكل ذلك يحسب للحبيب محمد ﷺ، فهو الآتي به، وهو المُلهم من عند ربه، بتلك التراتيل وتلك الأنوار المضيئة في سماء المجتمع.

ولم يكن بالأمر الاعتباطي من النبي في الحث بهذا الاتجاه؛ لأنه يعلم جيدا أن الارحام إذا صلحت صلح أمر هذا المجتمع، واخضر عوده،

(١) البقرة: ٨٣.
(٢) النحل: ٩٠.
(٣) الاسراء: ٢٦.
(٤) البقرة: ١٧٧.

واثمر شجره، حتى أكد عليها وعلى شأنها أيما تأكيد، فجعل للرحم من الثواب العظيم ما يرغّب الناس اليه، فقال: «**من رعى حق قرابات أبويه أُعطي في الجنة الف الف درجة، بعد ما بين كل درجتين حضر الفرس الجواد المضمر، مائة سنة**»(١).

كما بينﷺ ما تتميز به صلة الرحم بأن ثوابها لا يقتصر على الآخرة، وانما ثوابها في الدنيا أيضا، وهذا مما صرح به عندما قال الحديث الشريف: «**ان المعروف يمنع مصارع السوء، وأن الصدقة تطفئ غضب الرب، وصلة الرحم تزيد في العمر، وتنفي الفقر**»(٢).

نلحظ ان النبي قد أتى بمرغّبات على صلة الرحم، فهي فوق أنها طاعة للهﷻ إنها تجنبنا قصر الأجل وتمنحنا زيادة في العمر، وهذا الشيء ضمانة للمجتمع في نهاية المطاف تحسب للنبي محمدﷺ؛ لأن فئات المجتمع سيشكلون في النهاية كتل اجتماعية تربطها علاقات طيبة وودية، تتسم بالاحترام والتقدير، بما يؤدي الى تعزيز أواصر الالفة والمحبة بين فئات عدة من المجتمع.

ولو تأملنا في حديثه الذي ضرب فيه المثل الجلي الذي لا يحتمل التأويل أو المجاز حيث قال: «**إن المرء ليصل رحمه، وما بقي من عمره إلّا ثلاث سنين، فيمدها الله الى ثلاث وثلاثين سنة، وإن المرء ليقطع**

(١) البحار: ٧١/ ٩٠، ح٨. مسترك الوسائل: ١٢/ ٣٧٨، ح١٤٣٤١.
(٢) دعائم الاسلام: ٢/ ١٨٩. قرب الاسناد: ٣٧.

رحمه وقد بقي من عمره ثلاث وثلاثون سنة، فيقصرها الله الى ثلاث سنين»[1]، فصلة الرحم سبب، والزيادة في العمر نتيجة حتمية لها..

فالرحم دعامة أساسية من دعائم الوحدة الاجتماعية، وهذه الوحدة والجماعة لا تأتي إلّا من خلال عوامل تتشكل فيما بينها، فتعطينا نسيجا مجتمعيا متماسكا ومتجانسا؛ لأننا من خلالها سنجد في أغلب العوائل الاسلامية وشائج وروابط، فالعائلة(أ) ترتبط بالعائلة(ب) والعائلة(ج) والعائلة(د)، والعائلة(ب) فضلا عن ارتباطها بالعائلة(أ) ترتبط بالعائلة(ج) والعائلة(ب) والعائلة(ط) والعائلة(ي)، والعائلة(د) فضلا عما ذكر من ارتباطات ترتبط بالعائلة(ر) والعائلة(ن) والعائلة(ق) وهلم جرا مع كل العوائل التي تُعد اللبة الأساس للمجتمع.

وبالتالي سيتكون لدينا نسيج اجتماعي يترابط متشعبا شمالا وجنوبا، شرقا وغربا، مما يضفي التماسك المنشود الذي يعطي المجتمع قدرة على التفوق وتجاوز الصعاب، ناهيك عن المدد الغيبي الذي سيفيضه الرحمن على ذلك المجتمع، من حيث اكثار لخيره وزيادة لبركته.

ولعمر الحق إن الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله قد بيّن ذلك تمام البيان في حديثه عندما قال: «**صلة الرحم تعمر الديار، وتزيد في الاعمار وإن**

---

(١) الوسائل: ٢١/ ٥٣٧، ح٢٧٧٩٩.

كان أهلها غير أخيار»[١]، نعم ان الديار تزدهر وترتقي، وتصح النفوس والابدان.. كل ذلك بفضل صلة الرحم! حتى وإن كان أهلها وأصحابها ليسوا من الاخيار.

من جانب آخر نجدهﷺ قد أتى بتحذيرات خطيرة لمن يقطع الرحم، فالمتأمل في آيات القرآن الكريم يجد في كثير منها تحذيرا شديدا وعاقبة خطيرة لقاطع الرحم، ففي إحداها يقول جل وعلا: ﴿**وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ**﴾[٢].

إن عطف القطيعة على نقض عهد الله بعد الميثاق لبيان صريح على عظم عواقب قطيعة الرحم، وشدة مكروهيتها لله تعالى، كما أنه سبحانه قدمها على الذين يفسدون في الارض والذين كان كثير منهم من الأمم السابقة المنحرفة عن سبل الحق، والذين وقفوا بوجه أنبيائهم وحاربوهم أشد الحروب، فيا لها من ذنب عظيم.

وإذا ذهبنا الى آية أخرى لوجدنا النتيجة نفسها، قال تعالى: ﴿**فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ**﴾[٣]، فقد استحقوا لذلك

(١) أمالي الطوسي: ٤٨١.
(٢) الرعد: ٢٥.
(٣) محمد: ٢٢،٢٣.

اللعنة الإلهية، وفوق ذلك أصمهم وأعمى أبصارهم.

ولو تأملنا في سنّة النبي الشريفة فإننا نجد فيها أخطر الكلام عما ينتج ويترتب على قطيعة الرحم، فالرسول الاكرم ﷺ مثلا يقول: «**إن الرحمة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم**»[١]، فأي عاقبة تلك؟ وأي عقوبة استحقها القوم على شيء لم يقترفوه هم بأنفسهم؟ وكيف يتفق ذلك مع قول الرحمن في القرآن الكريم: ﴿**وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**﴾[٢]؟

قد يعتقد البعض أنهم إذا قاموا بما أُمروا به وآتوه بوجهه الذي يرتضيه الله سبحانه وتعالى فإن ذلك كافٍ في خلاصهم من واقع الحكم الإلهي الدنيوي، وأنهم في مأمن من أي أذى أو عقاب دنيوي قد يقدره الله ﷻ لمعاقبة أولئك المجموعة البشرية التي تعيش ضمن رقعة جغرافية مشتركة بين الجميع؛ نتيجة لأعمال الأكثرية من الذين طغوا في البلاد، وأصبحت الاقلية صامتة لا تقوم بدورها التنويري أو التبليغي، وممارسة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر..

والواقع أن ذلك خيال وسراب، لأن مصير المجتمع نفسه مصير الفرد، ولا يستطيع أحد أن يحيد عن السنن التاريخية التي قدرها الله سبحانه وارتضاها قانونا تكوينيا تحدث عنه في قرآنه الكريم فقال:

(١) كنز العمال: رقم الحديث ٦٩٧٨.
(٢) الاسراء: ١٥.

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[١].

ولعل ذلك كما نعتقد ما كان إلّا دفعا للناس وتوجيههم الى رفض الباطل ونبذه اجتماعيا؛ لكي يجتنبوه ويرجعوا الى الحق، وذلك عين ما أراده الله ورسوله في عدم نزول الرحمة على قوم فيهم قاطع رحم، فالقاطع إذا وجد من يردعه عن ذلك ويزجره، بل ويقاطعه إن لم يرتدع فإنه سوف يحيد عن غيه وجرمه لا محال، ومن ثم يتواصل مع ارحامه ويداريهم.

وهذا التفسير نفسه مع قولهﷺ: «**ان الملائكة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم**»[٢]، فكيف تأتي الرحمة والرزق والبركة قوماً قد مُنِعَت الملائكة من النزول عندهم؟! وهذه القطيعة إما أن تكون ناشئة عن أسباب وأحداث، أو أنها ناتجة عن الاستهتار وقلة الاهتمام بالأخلاق والآداب العامة التي أمرنا بها اللهﷻ.

ومما يحسب للنبي في رفد المجتمع بالعوامل الحضارية هو ما جعله من سقف زمني محدد لحلحلة الإشكال الذي قد يحصل مع ذوي الأرحام والقرابة، على أن لا يتجاوز ذلك ثلاثة أيام، حيث قال: «**لا**

(١) الانفال: ٢٥.

(٢) كنز العمال: رقم الحديث ٦٩٧٤.

يحل لمؤمن أن يهجر أخاه المؤمن فوق ثلاث»[١].

إن نبينا العظيم يوجهنا ويأمرنا أن نبادر الى تجاوز الخلافات مهما كانت كبيرة؛ لإعادة اللحمة الى المجتمع وتجسيدها فيه بتهذيب مجموعاته وأجزائه ووحداته التي من خلالها تتوحد الأمة وتنبذ التشرذم والفرقة التي نهانا الله عنها وأراد لنا الوحدة والوئام والاعتصام بحبله المتين حبل الاسلام فقال جل اسمه: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا**﴾[٢]، فوحدتنا سّر تقدم المجتمع وتطوره.

كل ما مرّ من كلام عن صلة الرحم يُعد منجزا عظيما على المستوى الاجتماعي يحسب للنبي صلى الله عليه وآله، فها هي نفحاته، وها هو ترغيبه وترهيبه، وها هي أوامره وزواجره، كلها تصب في خدمة المجتمع وتنظر إليه على أنه أساس السعادة والحضارة المبتغاة لدى الناس، الذين يريدون الفوز في الدنيا والآخرة.

أما الأخوة فقد حرض عليها حبيب القلوب محمد صلى الله عليه وآله، حتى جاء لنا من عند ربه الرحمن الرحيم: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾[٣]، وهذه الأخوة يترتب عليها آثار وتبعات، منها التزاور والمساعدة والسؤال عن الحال والاشتراك في الأفراح والأتراح، مما يخلق جوا من الرحمة والتماسك بين

(١) من لا يحضره الفقيه للصدوق: ٤/ ٣٨٠.
(٢) آل عمران: ١٠٣.
(٣) الحجرات: ١٠.

فئات المجتمع، يفيد منه الجميع.

إن اصطلاح الأخوة في الفكر المحمدي لا يراد منه أخوة النسب، بل يراد منه تلك العلاقة المجتمعية المبنية على الحب والوئام والتعاون والسلام، إنها أخوة الانسانية بعينها، والتي كانت قد تجسدت عند أتباع النبي الحقيقيين، الذين صاغهم وقولبهم بما يلائم مراد الله سبحانه وتعالى من عباده.

أراد الحبيب من الناس أيا كانت مشاربهم ومواردهم أن يعيشوا على الأرض بقيم الأخوة والمحبة، يساعد الغني الفقير، ويعطف الكبير على الصغير، ويحترم الصغير الكبير، لينشأ بذلك مجتمع يشار له بالبنان والرقي والازدهار.

أما الجيرة فتعد من أهم الجوانب الاجتماعية الرائعة التي اهتم بها نبيناﷺ، لأن المجتمعات لا تعيش فيها العوائل منفردة متباعدة عن الاخرى، فلا يوجد مجتمع إلّا وفيه الناس تعيش متجاورة بعضها مع بعض، وهذه الجيرة إن صلحت فإنها تشكل عامل قوة وتعزيز للمجتمع، وعامل بناء وتكامل له.

وقد اهتم الحبيبﷺ بهذا المجال أيما اهتمام، حتى عالج تلك القضية بأحاديثه النيرة، فقال: «**من آذى جاره فهو ملعون**»[1]، الله أكبر

(١) جامع الاخبار: ١٨/ ٦.

على هذه الجنبة العالية، التي تدفع الناس دفعا الى تجنب أذية الجار، مما يعطي لنا في النهاية مجتمعا لا مشاكل بين وحداته العائلية.

كما جاء عنه ﷺ أنه أمر علي بن أبي طالب عليه السلام بأمور يمكن عدها من أفضل المقومات التي تعمل على تماسك المجتمع، وأنها تعطي الصورة الجميلة عن سيد الخلق حينما قال له: «**يا علي، أكرم الجار ولو كان كافراً، وأكرم الضيف ولو كان كافراً، وأطع الوالدين و إن كانا كافرين، ولا ترد السائل وإن كان كافرا**»[1].

يا لرأفتك وانسانيتك يا رسول الله، تريد منا أن نكرم الجار حتى وإن كان كافرا، لكن الكثير منا ينام متخما على أسرة الديباج وجاره المؤمن يئن جوعا وألما، فإذا كان الكفر لا يشكل مانعا من التفاعل مع الكافر وإكرامه وتقديم ما يحتاج إليه، فما بالك مع المسلم والمؤمن والذي فوق ذلك لا يبعد عنا نسبا ورحما؟!

فالكفر يجب أن لا يشكل حاجزا ومانعا عن الألفة والتعاون والمحبة، إن ذلك الحديث المحمدي يمثل قمة التعايش والدعوة إليه، فالعمل من جانب المسلم مع الكفار بما دعا إليه نبي الرحمة سيجعل من الكافر أيضا ودودا تجاه المسلمين، ينظر إليهم نظرة احترام وتقدير، وربما سيفتح قلبه للإيمان فيما بعد.

---

(١) المصدر نفسه.

إن ما أتى به الحبيبﷺ في مسألة الجار والجيرة كان من الأهمية لنا ان نفتخر بها وأن نجعلها من أروع القيم المهمة وفي صميم العوامل الحضارية للمجتمع، إضافة الى الحث النبوي على التزاور والعيادة بين أفراد المجتمع بغض النظر عن القرابة الرحمية والدين، فكان ان قال صلوات الله عليه: «**تزاوروا وتحابوا وليحسن بعضكم إلى بعض**»[١].

وكثيرة هي الأحاديث التي ألقاها النبي على مسامع الأمة وستبقى الى يوم القيامة تحثهم على ذلك، فقال أيضا: «**تزاوروا وتعاطفوا وتباذلوا**»[٢]، كما قال أيضا: «**الزائر أخاه المسلم أعظم أجرا من المزور**»[٣]، إيمانا منه بأن التزاور والتباذل المتبادل بين الناس له تأثيرا عظيما على المجتمع، يقوي من تماسكه، وينشر قيم المحبة والتسامح.

كما نجد في هذا الاتجاه حثا منهﷺ على مصافحة الآخرين عند اللقاء بهم في الطرقات والمناسبات والمحافل، فالتصافح فيه من التحابب والتوادد الشيء الكثير، كما حثّ على العمل بالتهادي بين الناس، لأن العمل بها يعطي نتائج رائعة على المستوى الاجتماعي.

فإن كان بين البعض من الناس نوع من التباغض والأحقاد فالهدية ستعمل كممحاة تزيل ما كتبت الأيام بينهم من تباعد وكراهية، وهذا

(١) تحف العقول: ١١٠/ ٢.
(٢) البحار: ٧١/ ٢٣١.
(٣) ميزان الحكمة: ٤/ ٢٠٤.

ما أشار إليه الحبيب صلى الله عليه وآله في حديثه الشريف: «**تصافحوا وتهادوا فإن المصافحة تزيد في المودة والهدية تذهب الغل**»[1].

(١) دعائم الاسلام: ٢/ ١٩٥.

مسك الختام

مما تقدم يتبين لنا ان النبي محمدﷺ كان قد جاء الى أهل الأرض جميعا بمنظومة رائعة في القيم الاجتماعية السامية، واستطاع بحق ان يخرج الناس من الظلمات الى النور المبين، ومن هنا علينا ان نفرق بين القيم السامية التي جاء بها الأمين من عند ربه، وبين من يدّعون أنهم حملة لتلك القيم والأخلاق التي لا تمت بأي صلة الى النبي الأكرمﷺ ودينه الخالد العظيم.

فمنهاج النبي الحقيقي ليس نظرية تقرأ فحسب، وإنما هو عمل وتطبيق، وأخطأ من قال ان الاسلام نظرية من دون تطبيق، لكن قد يشكل البعض علينا ويقول: لماذا انتم يا أتباع محمد على هذا الحال من التخلف والجاهلية والتدهور في الجوانب الحياتية كافة؟! فأنتم موزعون بين دول متناحرة ومفككة، تحكم فيكم القوميات والأعراق والجهوية والطائفية وغير ذلك؟ حتى بدا الاضطهاد وكأنه سمة خاصة بالمسلمين وحدهم، والقتل والتشريد وما أشبه ذلك من المشاكل التي لم نرَ مثلها في غير البلاد الاسلامية.

نقول وبصراحة مشوبة بالألم والخجل كذلك، أن الذي أوصلنا الى

هذا الحال هو التراجع المخيف الذي ركبه الكثير منا وسرنا به بعيدا عن منهاج محمد ﷺ، وما يمثله الاسلام الأصيل، حتى صار الاسلام ونبيه والمؤمنون في جهة ونحن في جهة أخرى، وصرنا نحمل من الاسلام والنبي الأكرم ﷺ شكليات وعناوين جوفاء، وشعارات بالية سئمنا منها.

فمثلا نجد ان النبي يدعو الى العدل، والمسلمون مع الأسف الشديد يشيع هذه الايام بينهم الظلم المقيت، والنبي يدعو الى العلم، والغالبية من اتباعه الآن متمسكون بقيم الجهل والجاهلية التي أكل الدهر عليها وشرب، والنبي يدعو الى الانطلاق نحو الأفق الأعلى والمجد الرائق، والأتباع لا يزالون يعيشون في جحورهم التي لا يريدون ان يخرجوا منها.

إننا لو فعلنا ما أراد منا النبي الأكرم ﷺ لوجدنا أنفسنا في العلياء من النجم، ولا يصل إلينا أي مجتمع آخر ولا يضاهينا أي كيان، ولكان الاسلام بلسما لجراحنا التي مازالت تنزف على أرض أُثقلت بالدماء، إن استمرت على هذا المنوال فربما ستصل الى حدٌ يمكن لها أن تعود من جديد.

مع الابتعاد عن النهج المحمدي الأصيل، نجد أننا مازلنا الأفضل بين الأمم من ناحية الأخلاق والعادات والتقاليد التي تحمل بين جنباتها ملامح تمت بالصلة الى ذلك السراج المضيء، الذي لم تخلق الخلائق إلّا لأجله وأجل آله الطاهرين.

نعم فبحمد الله هناك أناس وإن امتازوا بالقلة قياسا مع الأكثرية مازالوا يسيرون بهدي الحق المحمدي، يحملون من قيم النبي محمدﷺ الاجتماعية ما يكشف للجميع قيمة وأصالة ذلك المبجل العظيم، وفيهم من الصفات التي تعمل على بث روح التفاؤل لذلك المجتمع الرازخ تحت كثبان التيه والانجراف، فأنت ما إن تنظر في كل بقعة ودائرة اجتماعية حتى تجد لأولئك صدى يتجاوز كل العقبات والجدران العازلة، فينبعث الأمل مستبشرا بتلك الجذوة التي سيأتي اليوم الموعود، فتشعل العالم كله لتعيد الحق الى نصابه، حينئذ سيكون المجتمع هو المجتمع الذي أراده الله جل وعلا أن يسود في أرضه، مجتمع العدل والمساواة والحق والازدهار، الذي سيُملأ قسطا وعدلا، بعدما مُلئ ظلما وجورا..

بعد كل ذلك الذي ذكرناه نقول: أن النبي محمداﷺ كان له المنجز الأعظم بين البشرية على المستوى الاجتماعي، ولنا أن نذكر قول الكاتب والمفكر العالمي تولستوي عندما عرج يمتدح شخص الحبيبﷺ: «ويكفي محمدا فخرا انه خلص أمة ذليلة دموية من مخالب شياطين العادات الذميمة، وفتح على وجوههم طريق الرقي والتقدم، وأنا واحد من المبهورين بالنبي محمد الذي اختاره الله الواحد؛ لتكون آخر الرسالات على يديه وليكون هو آخر الأنبياء»[1].

(١) حكم النبي محمد، تولستوي: ١٠.

كما أذكر ما أفاض به غوستاف لوبون «استطاع محمد[ﷺ] أن يبدع مثلاً عاليًا قويًا للشعوب العربية التي لا عهد لها بالمثل العليا، وفي ذلك الإبداع تتجلى عظمة محمد[ﷺ] على الخصوص.. ولم يتردد أتباعه في التضحية بأنفسهم في سبيل هذا المثل الأعلى..»[١].

وها أنا ذا أختم عرضي للمنجز الاجتماعي المحمدي العظيم بشهادة الكاتب والأديب البريطاني الشهير هربرت جورج ولز[٢](١٨٦٦ – ١٩٤٦) حيث يقول: «حجّ محمد[ﷺ] حجة الوداع من المدينة إلى مكة، قبل وفاته بعام، وعند ذاك ألقى على شعبه موعظة عظيمة.. إنّ أول فقرة فيها تجرف أمامها كل ما بين المسلمين من نهب وسلب ومن ثارات ودماء، وتجعل الفقرة الأخيرة منها الزنجي المؤمن عدلاً للخليفة.. إنها أسست في العالم تقاليد عظيمة للتعامل العادل الكريم، وإنها لتنفخ في الناس روح الكرم والسماحة، كما أنها إنسانية السمة ممكنة التنفيذ، فإنها خلقت جماعة إنسانية يقل ما فيها مما يغمر الدنيا من قسوة وظلم اجتماعي، عما في أي جماعة أخرى سبقتها»[٣].

---

(١) حضارة العرب: ١١٦.

(٢) مفكر بريطاني عمل في التدريس حينا حتى تولى التأليف، بعد ذلك قام بالكتابة عن التاريخ حتى أنجز عام ١٩٢٠ كتابه الشهير(معالم تاريخ الإنسانية) ثم أعقبه بكتاب(موجز تاريخ العالم).

(٣) معالم تاريخ الانسانية: ٣/ ٦٤٠-٦٤١.

المحتويات

افتتاح	٣
ما هي الحضارة؟	٧
الحضارة لغة:	٧
الحضارة اصطلاحا:	٧
مفهوم الحضارة المحمدية	١٠
مُلهِم الحضارة الأعظم	١١
البعد الاجتماعي	١٦
ثنائية الفرد والمجتمع عند النبي صلى الله عليه وآله	١٨
اولاً: عدل النبي صلى الله عليه وآله ومساواته الإنسانية	٢٤
مفهوما العدل والمساواة:	٢٤
العدل والمساواة في الحضارات القديمة	٢٧
العدل والمساواة عند اهل الكتاب	٣٢

عدل النبي صلى الله عليه وآله ومساواته الانسانية	٣٩
العدل والمساواة في فكر النبي صلى الله عليه وآله	٤٣
العدل والمساواة في سلوك النبي وأفعاله	٥٢
الحرية والتعايش السلمي	٥٧
حرية المشركين	٥٩
حرية أهل الكتاب	٦٣
مسألة الشورى	٧١
تحرير المرأة وإقرار حقوقها	٧٤
حقوق المرأة عند العرب الجاهليين	٧٤
حقوق المرأة في الحضارات الماضية	٧٦
حقوق المرأة عند النبي صلى الله عليه وآله	٧٧
التسامح والمساعدة وكف الأذى	٨٤
الرحم والجيرة والأخوّة	٩٥
مسك الختام	١٠٧